الباب الأول
صلة الدعاء بالقضاء والقدر

يشتمل على ستة أقسام سنوردها فى سبعة فصول هى:

١ - حقيقة القضاء والقدر..

٢- الدعاء والتوكل..

٣- الدعاء والعمل..

٤- الدعاء والقضاء والقدر..

٥- رأى العلماء فى نفع الدعاء..

٦- أدلة إجابة الدعاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية..

٧ - دعوات مستجابة..

الفصل الأول

حقيقة القضاء والقدر

أولاً ـ فى اللغة (القاموس):

معنى القدر: القضاء والحكم ومبلغ الشىء والطاقة.

معنى القضاء: الحكم والصنع والحتم والبيان.

ثانياً ـ فى الاصطلاح العلمى:

تعددت آراء علماء الكلام فى حقيقة كل من القضاء والقدر، نذكر هنا طرفا منها:

قال الأشاعرة: القضاء هو إرادة الله تعالى أزلا المتعلقة بجميع الأشياء خيرها وشرها على ماهى عليه فيما لا يزال، فمرده الإرادة، والقدر هو إنجاز قضاء الله وإخراجه إلى حيز الوجود فمرده القدرة.

وقال ابن سينا: القضاء هو علم الله تعالى المتعلق بالكل على النظام الأكمل الذى يكون فى الوجود فهو عنده على ضوء هذا التعريف أوسع دائرة من القدر ومرجعه صفة العلم. والقدر عنده هو إفاضة الكائنات على حسب ما فى علمه تعالى.. فالكل صادر من الله، ومعلول له، وكل ذلك بقضاء وقدر.

وبهذا التعريف صار القدر أخص من القضاء لأن مرجعه القدرة الإلهية وهى أخص من العلم.

أما الإمام الغزالى فعرف القدر بقوله: «هو اسم لما صدر مقدرا عن فعل القادر» فهو بهذا التعريف يعتبر موافقا للقائلين بأن القضاء أخص من القدر.. فالقدر عنده أتم والقضاء أخص على عكس ما ذهب إليه ابن سينا.. وكان الغزالى يقول هو اسم لكل ما قدره الله تعالى أولا فى علمه وإرادته فمرجعه العلم والإرادة وهما أوسع مجالا من القدرة التى هى عنده مرجع للقضاء فيكون القضاء خاصا.

مدلولات القضاء ومشتقاته فى القرآن الكريم:

مدلولات القضاء: حصرها الإمام القرطبى فى ستة وهى:

١ - يطلق ويراد به الإرادة لقوله تعالى﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(١)

٢- يطلق ويراد به الفراغ لقوله تعالى ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾(٢).

٣- يطلق ويراد به الحكم لقوله تعالى ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾(٣).

٤- يطلق ويراد به الأمر لقوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾(٤).

٥- يطلق ويراد به الخلق لقوله تعالى ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾(٥).

٦- يطلق ويراد به العهد لقوله تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ ﴾(٦).

أما كلمة (القضاء) فلم ترد بنصها فى القرآن الكريم وإنما وردت مشتقاتها التى بلغت ثلاثا وستين مرة فى سبع وعشرين سورة من سور الكتاب العزيز (البقرة وآل عمران والنساء والأنعام والأنفال ويونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر والإسراء ومريم وطه والحج والنمل والقصص والأحزاب وسبأ وفاطر وغافر والزمر وفصلت والزخرف والجاثية والأحقاف والجمعة وعبس) ويلاحظ القارىء لهذه المشتقات فى سياق آياتها أنها كلها تدور حول معانى الحسم والخلق والإيجاد والإبراز، أى فى صورة الحكم والتنفيذ فهو على هذا الاستنتاج يرجع الى صفة القدرة الواجبة لله تعالى.

مدلولات القدر ومشتقاته فى القرآن الكريم:

١- يطلق ويراد به الغلبة لقوله تعالى ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ﴾(٧)

٢- يطلق ويراد به الاستطاعة لقوله تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾(٨).

١- آل عمران: ٤٧ ٢- يوسف: ٤١ ٣- طه: ٧٢ ٤- الإسراء: ٢٣
٥- فصلت: ١٢ ٦- القصص: ٤٤ ٧- المائدة: ٣٤ ٨- النحل: ٧٥

٣- يطلق ويراد به التعظيم والمعرفة لقوله تعالى ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾[١].

٤- يطلق ويراد به التنفيذ لقوله تعالى ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾[٢].

٥- يطلق ويراد به التحديد لقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[٣].

٦- يطلق ويراد به التخمين لقوله تعالى ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾[٤].

٧- يطلق ويراد به التضييق لقوله تعالى ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾[٥].

وقد ورد القدر ومشتقاته فى ثلاث وخمسين سورة من سور الكتاب العزيز (البقرة وآلا عمران والنساء والمائدة والانعام والأنفال والتوبة ويونس وهود والرعد وإبراهيم والحجر والنحل والإسراء والكهف وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان والعنكبوت والروم والسجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس والزمر وفصلت والشورى والزخرف والأحقاف والفتح والقمر والواقعة والحديد والحشر والممتحنة والتفابن والطلاق والتحريم والملك والمعارج والمزمل والمدثر والقيامة والإنسان والمرسلات وعبس والطارق والبلد والأعلى.

وعلى ضوء ماسبق بيان أقول: إن تقدير الأمور قدر، وسوق هذه الأمور الى حيز الوجود قضاء..

فالقدر هو تقدير الأمر بدأ، والقضاء فصل ذلك الأمر وقطعه كما يقال قضى القاضى، ويمكن لنا أن نتصور القدر على أنه اسباب والقضاء مسببات، فمتى وجدت الأسباب وجدت المسببات، فالنار مثلا سبب للدفء.. فالسبب هو القدر الذى أودعه الله فى الكائنات.. فالأسباب المودعة بقدرة الله تعالى فى الأشياء هى القدر، والمسببات التى تحدث عند تلاقى الأسباب بعضها ببعض هى القضاء وسواء توافقت الأسباب أم تعارضت فهى فى دائرة القدر، أما نتيجة هذا التوافق أو التعارض فهى المسببات أعنى القضاء.

١- الحج: ٧٤ ٢- المؤمنون: ١٨ ٣- المزمل: ٢٠

٤- المدثر: ١٨ ٥- الفجر: ١٦

فالقدر هو التقدير والتنسيق ووضع الشيء فى موضعه المناسب، فهو تدبير وتصميم، وأسباب لا أثر لها وإنما يكون أثرها عند تحركها بأسباب أخرى، وهذه الأسباب قد تكون تحركها بأسباب أخرى، وهذه الأسباب قد تكون طبيعية وغير طبيعية بحيث يمكن لإرادة الانسان أن تتدخل فيها كالبذرة مثلا سواء أخذناها بمبدأ التلازم بين الأسباب والمسببات أم لا..

أما مكانة القضاء والقدر فى القرآن والسنة فقد عدهما الإسلام من شعب الإيمان كما ورد فى الحديث النبوى وذلك حينما سأل جبريل رسول الله ﷺ قائلا: ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.. وتؤمن بالقدر خيره وشره.

وما روى عن علىّ كرم الله وجهه[1] أنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربعة: يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله بعثنى بالحق، ويؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومره.

ويقول الله تعالى فى الحديث القدسى: (من لم يرض بقضائى، ويصبر على بلوائى فليطلب ربا سواى).

فهذه النصوص جعلت القضاء والقدر من شعب الإيمان.

ومن ثم وجب على كل مسلم أن يؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره.. حلوه ومره.. اللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه اللهم رضنا بقضائك، وبارك لنا فيما قدر لنا حتى لا نحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت، واجعلنا ياربنا من الذين إذا أحسنوا أستبشروا، وإذا أساؤا استغفروا، اللهم انى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى، وتجمع بها أمرى، وتلم بها شعثى، وتصلح بها غائبى،

---

(١) هو أبو الحسن على بن أبى طالب القرشى الهاشمى رضى الله عنه، أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ابن عم رسول الله ﷺ وصهره زوج فاطمة رضى الله عنها، وأول من أسلم (من الصبيان)، حصلت فى أيامه فتن بين المسلمين حيث اندلعت بعد مقتل عثمان رضى الله عنه، وقُتِل شهيدًا، مرضيًا عنه بالكوفة فى السابع عشر من رمضان سنة (٤٠) هـ ولا يُعرف مكان قبره رضى الله عنه وانظر «شذرات الذهب» لابن العماد ١/ ٢٢١ - ٢٢٧.

وترفع بها شاهدى، وتزكى بها عملى، وتلهمنى بها رشدى، وتردبها ألفتى، وتعصمنى بها من كل سوء وتجمع بها شملى.

اللهم اعطنا ايمانا لا يرتد، ورحمة من عندك لاتنفد، ويقينا ليس بعده كفر، ولا فسوق ولا عصيان، ونسألك رضا من عندك ننال به شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة.

اللهم إنا نسألك الفوز فى القضاء، ونزل الشهداء، وعيش السعداء، ومرافقة الأنبياء، والنصر على الأعداء، انك ربنا سميع مجيب الدعاء.

اللهم انى أنزل بك حاجتى وإن قصر رأيى وضعف عملى أفتقرت إلى رحمتك فأسألك ياقاضى الأمور ويا شافى الصدور أن تجيرنى من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور.

اللهم ماقصر عنه رأيى ولم تبلغه مسألتى من خير وعدته أحداً من خلقك، أو خير أنت معطيه لأحد من عبادك، فإنى أرغب اليك بمثله، وأسألك إياه يا أرحم الراحمين ويارب العالمين.

اللهم يا ذا الحبل الشديد والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود والرَّكع السجود، الموفين بالعهود، انك رحيم ودود تفعل ماتريد. سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الثانى
المبحث الأول

الدعـــاء والتوكـل

التوكل لغة هو إظهار العجز والاعتماد على الغير.. أما معناه الاصطلاحى فقد عرفه العالم المحقق الشيخ أحمد المعروف بشاه ولى الله بن عبد الرحيم المحدث الدهلوى فى كتابه: «حجة الله البالغة».

فقال: التوكل هو أن يغلب على الإنسان اليقين حتى يفتر سعيه فى جلب المنافع ودفع المضار من قبل الأسباب ولكن يمشى على ما سنّه الله تعالى فى عباده من الاكساب من غير اعتماد عليها..

وطريق تحقيقه يصفه لنا الإمام العارف الشيخ محمد أمين الكردى فى كتابه: «تنوير القلوب فى معاملة عَلاّم الغيوب»[1] فيقول: إن الدواء المحصل للتوكل هو ملازمة خمسة أذكار هى مايلى:

أحدهما: أن يلحظ العبد أن الله تعالى عالم بحاله من جوع ونحوه ولو كان تحت سبع أراضين أو فى أقصى الدنيا.

ثانيهما: اعتقاده كمال قدرته تعالى.

ثالثهما: أن يلحظ أن الله تعالى منزهّ عن السهو النسيان.

رابعهما: أن يلحظ أن الله تعالى خزائنه لا تنقص أبدا وأنه الكريم الجواد الذى لا ينسى.

والمتوكل ماهو إلا عبد صالح باشر حياته فى ضوء تعاليم ربه فبذل جهده فى كسب قوته بعرق جبينه، فعف نفسه وأهله من ذل السؤال غير أنه أخذ فى اعتباره أن ما يبذله من طاقة لا توصله إلى مطلوبه إلا إذا أراد الله له ذلك.. ولهذا قرن العمل بالتوكل والاعتماد عليه جلّ شأنه.

---

(١) من كتاب تنوير القلوب للإمام العارف الشيخ محمد أمين الكردى.

روى الشيخان أن النبى ﷺ لماذكر الذين يدخلون الجنة بغير حساب قيل له من هم يارسول الله؟ قال ﷺ: «هم الذين لايرقون ولا يسترقون ولا يطيرون، ولا يكتون، وعلى ربهم يتوكلون».

يقول الإمام الدهلوى: إنما وصفهم النبى ﷺ بهذا إعلاما بأن أثر التوكل ترك الأسباب التى نهى الشرع عنها، لا ترك الأسباب التى سنّها الله تعالى لعباده.

ولهذا أقول أن التوكل من لوازم كمال الإيمان لأنه الاعتماد على الخالق دون رؤية الخلائق، فمن توكل عليه كفاه، ومن انقطع إليه أواه..

يقول الإمام الغزالى فى الإحياء[1]: قد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب باليدين، وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاه، وكاللحم على الوضم، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام فى الشرع والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين بل إنما يظهر تأثير التوكل فى حركة العبد وسعيه بعمله إلى مقاصده.

وسعى العبد باختياره إما يكون لجلب نافع هو هو موجود عنده كالادخار، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض، فمقصود حركات العبد لا يبعد عن هذه الحالات الأربع التى هى:

١- جلب النافع.

٢- أو حفظه.

٣- أو دفع الضار.

٤- أو قطعه.

واجمع القوم على أن التوكل لا ينافى القيام بالأسباب، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها وإلا هو بطالة وتوكل فاسد.

---

(١) الأحياء للغزالى: ج٤ ص ٢٥٣.

* الإمام الغزالى: هو محمد بن محمد أبو حامد الطوسى الغزالى، حجة الإسلام، صاحب التصانيف الكثيرة وأشهرها إحياء علوم الدين، جلس للتدريس فى المدرسة النظامية ببغداد، ثم أخذ نفسه بالمجاهدة، توفى بطوس عام ٥٠٥هـ.

يقول ابن القيم [1]: إسقاط الأسباب ليس من التوكل.. فطرد الأسباب الدنيوية وجعل وجودها كالعدم يؤدى رلى طرد الأسباب الأخروية وهذا وذاك مفسدة للدنيا والآخرة، ويدفع إلى القول بأن سَبق العلم والحكم بالسعادة والشقاوة لا يتغير البتة سواء عمل الإنسان الخير أو الشر.. ويؤدى ذلك بدوره إلى تعطيل الأحكام الشرعية والأوامر الإلهية ومنها الدعاء فلا داعى للدعاء لأن العلم والحكم بحصوله حصل سواء دعونا أو لم ندعُ، وهذا فساد عظيم لمخالفته للقرآن والسنة وإجماع السلف، وأئمة المسلمين، بل ومخالف لصريح العقل والحسن والمشاهدة.. ولقد سئُل النبى ﷺ عن اسقاط الأسباب نظرا الى القدر؟ فرد ذلك وألزم القيام بالأسباب كما فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة، ومقعده من النار، قالوا يا رسول الله: أفلاندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال: لا أعملوا فكل ميسر لما خلق له.

وفى الصحيح عنه ايضا أنه قيل له: يارسول الله أرأيت مايكدح الناس فيه اليوم ويعملون أمر قضى عليهم ومضى، أم فيما يتسقبلون عما آتاهم فيه الحجة؟ فقال: بل شىء قضى عليهم ومضى فيهم.. قالوا يارسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على كتابنا؟

قال: لا اعملوا فكل ميسّر لما خلق له.

وبالرغم من مكانة الدعاء فى القرآن والسنة وعند العلماء الصالحين وبيان مفهومه الحقيقى وأنه لا تناقض بينه وبين التوكل والتفويض والتسليم نرى بعض الناس يخطىء فى فهمه للتوكل فيظنه أنه أمر مقتض لترك العمل ومنه الدعاء، وداع من الدواعى الدافعة لعدم الأخذ بالأسباب، وعليه فهو يعطل كل مدركاته الحسية والعقلية ويسكن سكون الجماد لأن كل شىء من الله وإلى الله، وكل ماهو دافع فى الحياة إنما هو بقضاء الله تعالى وقدره، فلم يبذل الجهد، ولم يحرك الجوارح، يظن هذا الصنف من الناس أنه بذلك الاعتقاد الخاطىء قد وصلوا الى الكمال المطلق بهذه الفلسفة

---

(١) الجزء الثالث من مؤلفه مدارج السالكين بتصرف.

* ابن القيم: هو شمس الدين محمد بن أبى بكر وكان أبوه قيّم أى ناظر لمدرسة الجوزية بدمشق تتلمذ على ابن تيمية، له العديد من المؤلفات القيمة توفى عام ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م.

المريضة.. وهؤلاء مع فرط جهلهم وضلالهم.. متناقضون، فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب فيقال لأحدهم:

* إن كان الشبع والرى قد قُدّرا لك فلا بد من وقوعهما، أكلت أو لم تأكل، وإن لم يُقدرا لم يقعا أكلت أو لم تأكل.

* إن كان الولد قد قُدرّ لك فلابد منه، وطئت الزوجة أو الأمة أو لم تطأ، وإن لم يقدر ذلك لم يكن، فلا حاجة إلى التزوج والتسرى وهلم جرا.

فهل يقول هذا عاقل أو آدمى؟.. بل بهذا التفكير والسلوك يصبح الإنسان أحط مرتبة من الحيوان، إذ غريزة الحيوان تدفعه إلى الحركة والسعى وتناول الطعام والشراب والتوجه إلى ماينفعه، والبعد عما يضره، أى أن الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التى بها قوامه وحياته.

ولو كان التوكل كما فهمه هذا اللفيف من الناس كسل ودعه وتواكل وترك للعمل، لما أمر الله به أنبياءه، ولما حثهم على الالتزام به، ولما مدح الله المتصفين به من عباده، وأثنى عليهم، وكيف يكون الأمر كذلك والرسول ﷺ يقول: «إذا قال العبد باسم الله توكلت على الله ولا قوة إلا بالله قال الحق سبحانه وتعالى: «هُديت وكُفيت» ولذا قال الله تعالى: «ومن يتوكل على الله فهو حَسبْه».

جاء رجل إلى النى ﷺ فقال متسائلا: يارسول الله: أرسل ناقتى وأتوكل. وفى رواية الترمذى: اعقل ناقتى وأتوكل أو اطلقها وأتوكل ويرسل ناقته أى يتركها حرة الحركة بدون قيد. بخلاف يعقلها أى يقيدها.

وفى هذا الحديث النبوى توجيه جميل أن نحرص على مافيه الخير لنا، وأن نأخذ فى الأسباب المشروعة لتحصيل الطلب ولا نعجز ونكتفى بالدعاء يقول عمر رضى الله عنه: «لايقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقنى، فقد علمتم أن السماء لاتمطر ذهبا ولافضة.

ويقول ابن الجوزى: لايكن بينك وبين النهر شير من الارض.. فلا ترفع الماء وتقوم تصلى صلاة الاستسقاء.

وجزى الله خيراً القائل:

توكـل علـى اللـه فى الأمر كلـه ولا ترغبن فى العجز يوما عن الطلب
ألـم تـر أن اللـه قـال لمريـم إليـك فهـزى الجـذع يسـاقط الرطـب
ولو شاء أحنى الجزع من غير هزه إليهـا، ولكـن كـل شـىء لـه سـبب
وقـد كان حـب الله أولى برزقها كما كان حب الخلق أدعى إلى النَّصَب

كان الله يرزقها فى المحراب بغير نصب لفراغ قلبها له، فلما تعلق قلبها بولدها ردّها إلى العادة فى التعلق بالأسباب.

فالتوكل لا يقف حجر عثرة أمام أهدافنا، ولا يعطل ملكاتنا، ولا يرفع التكاليف المنوطة بنا خصوصا إذا فهمنا ووعينا قول الله تعالى: «فاعبده وتوكل عليه» فكلا العبادة والتوكل اعتماد على الله بعد الأخذ بالأسباب، وقد أمر الله تعالى بهما، والمتوكل على الله حقيقة هو المعتمد عليه، وهو الذى يعمل فى ظل رعايته، وفى طريق هدايته، وسبيل توفيقه.

والتوكل حقيقة هو القوة الدافعة للهمم، الباعثة للعزائم المجددة للأنشطة المرشدة للخير، المؤدية للظفر والنجاح..

أما التواكل فلم يرد لفظه ولا مرادفه، ولا مشتق من مشتقاته فى القرآن الكريم إذ هو ترك العمل، وعدم الأخذ بالأسباب وهذا لايليق بابن آدم الذى خلقه الله على صورته، واستخلفه فى مُلكه وكَرَّمه على سائر خلقه بأن اصبح كل ما عداه مذللا مسخرا له.

والتواكل هو العجز بعينه، والسلبية المقيتة المنتزعة للإيمان من القلوب المتمردة على أوامر الله، والصارفة للانسان عن كل نافع، والنافية له عن كل تقدم مشروع..

ورد فى الأثر أن الله أوحى إلى داود عليه السلام:

«يا داود من دعانى أجبته، ومن استغاثنى أغثته، ومن استنصرنى نصرته، ومن توكل على كفيته.. «أليس الله بكاف عبده».

وقال لقمان لابنه: يابنى إن الدنيا بحر عميق قد غرق فيه ناس كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وشراعها التوكل على الله لعلك تنجو وما اظنك ناجيا.

وقال داود لابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام:

«يابنى إنما يستدل على تقوى الرجل بثلاث:

* حُسن التوكل فيما لم ينل.

* وحُسن الرضا فيما قد نال.

* وحُسن الصبر فيما قد فات..

وقيل ليحيى بن معاذ: متى يكون الرجل معتصما بالله؟ قال: «إذا قطع قلبه عن كل علاقة موجودة أو مفقودة ورضى بالله وكيلا».

وحكى عن جماعة دخلوا على الجنيد رحمه الله.. فقالوا له: نطلب أرزاقنا قال: إن علمتم أين هى فاطلبوها؟! فقالوا: نسأل الله ذلك؟ فقال: إن علمتم أنه ينساكم فذكِّروه!!، فقالوا: ندخل بيوتنا ونتوكل على الله، فقال: التجربة مع الله شك خطر، قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة. ثم قال:

دع الاعتراض فما الأمر لك ... ولا الحكم فى حركات الفلك

ولا تسألنى الله عن فعله ... فمن خاض لجة البحر هلك

وروى أن حاتما الأصم كان تلميذا لشقيق البلخى رحمهما الله فقال له يوما: منذكم صحبتنى؟ قال: منذ ثلاث وثلاثين سنة.

قال: فما تعلّمت منى فى هذه المدة؟ قال: ثمان مسائل.

قال: شقيق: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب عمرى معك ولا تتعلم إلا ثمان مسائل، فما هى؟

فذكر واحدة بعد الأخرى حتى قال الثامنة: نظرت الى هذا الخلق فوجدتهم يتوكل بعضهم على بعض، ويتوكل هذا على تجارته، وهذا على صنعته، وهذا على صحة بدنه، وكل مخلوق يتوكل على مخلوق، فرجعت الى قول الله عز وجل: «ومن يتوكل على الله فهو حَسْبُه» وتوكلت على الله.. فقال شقيق: وفقك الله يا حاتم فلقد جمعت الأمور كلها.

المبحث الثانى

ثمرة التوكل ومرادفاته

قال بعضهم: من أقبح الذنوب عند الله أن يسأل العبد ربه فى حصول شىء من غير تفويض، ثم إذا أعطاه وحصل له منه ضجر وتعب سأل الله تعالى أن يحوله عنه؟!

فإن الحق تعالى جوده فيّاض على عبده وله أوقات لا يرد فيها سائلا ولو كافراً، والحق تعالى ليس تحت أمرنا ولا طاعتنا حتى نقول له بكرة النهار مثلا افعل لنا كذا ثم آخر النهار نندم ونقول له حول عنا ما أعطيته بكرة النهار.

وقال بعضهم: «إذا خيَّرت الله فى شىء فإيّاك أن تختار، وفرّ من اختيارك إلى اختياره، فإنك جاهل بالعواقب».

قال أبو الدرداء[1] رضى الله عنه: ذروة الإيمان الاخلاص والتوكل والاستسلام للرب عز وجل، وليس فى المقامات أعز من التوكل، فإن التوكل على الله يحبب العبد، وأن التفويض إلى الله يهديه.

ويهدى الله يوافق العبد رضوان الله.. وبموافقة رضوان الله يستوجب العبد كرامة الله.. ومن يتوكل على الله ويسلم لقضائه، ويفوض الأمر إليه، ويرضى بقدره، فقد أقام الدين وأحسن الإيمان واليقين، وفرغ يديه ورجليه لكسب الخير، وأقام الأخلاق الصالحة التى تُصلح للعبد أمره، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان لأنه مقرون به.. ومن أحب أهل التوكل فقد أحبه الله.. وأول التوكل المعرفة بالوكيل[2] سبحانه وتعالى.

---

(١) هو أبو الدرداء، عويمر، اختلف فى اسم أبيه وجده، الأنصارى الخزرجى، أسلم يوم بدر وشهد أحُّد وأبلى فيها، ولاه معاوية عنه قضاء دمشق فى خلافة عمر رضى الله عنه، ومات فى خلافة عثمان رضى الله عنه.

(٢) من كتاب تنوير القلوب: ص ٤٧٥ - ٤٨٤.

الفصل الثالث

الدعاء والعمل

العمل هو بذل بعض الطاقة الذهنية أو الجسدية أو كلها لبلوغ هدف معين بأجر أو بغير أجر مادى أو معنوى..

ولقد جاءت الشرائع السماوية كلها آمرة بالعمل، وداعية إليه، وحاثة عليه، ذلكم العمل الشريف الذى يؤدى إلى الحصول على لقمة العيش، ويسهم مساهمة فعالة فى إسعاد البشرية ورخائها.. ولقد كان الاسلام منذ فجره ولا يزال هو الدين السماوى الذى جاء بالتشريعات المتعددة والمستوعبة لكل طوائف العمل وأنواعه، أمر ودعا وحرض على مزاولته كمصدر رزق، حفاظا على الوقت من الضياع، واسهاما فى بلوغ البشرية أسمى درجات الرقى والرفاهية، وامتطاء الدنيا كمركبة ذلول أو غير ذلول لأنها مزرعة الآخرة وطريقها.. ولقد ناشد القرآن الكريم الانسانية كلها فى مزاولة المهن والحرف المختلفة وغيرها، وحثهم عليها حثا، وأبان لهم وجه الصواب والخير فى ممارستها، وأُحيط العباد علمًا، بأن الله يرى أعمالهم ورسوله المصطفى والصالحون من عباده فقال عز من قائل: ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾(١).

فينبغى أن تخالط هذه الرؤية شغاف قلب كل مؤمن ليقف على شرف حقيقتها التى لاشرف بعدها، ولا شىء يدانيها.. ولقد سلكت السنة المطهرة عين الطريق، ونفس السبيل، وأوضح الرسول فى أكثر من حديث أن اليد العليا خير وأحب إلى الله من اليد السفلى وإن كان فى كل خير.

ولكى تقف على حقيقة العمل، وبيان فضله وأثره وفائدته، ينبغى أن تعلم أن لفظ العمل ومشتقاته قد وردت فى القرآن الكريم مائة وإحدى وتسعين مرة منبثة فى ثمان وستين سورة وفى أكثر من (٢٥) جزءاً من القرآن الكريم.. كما يفهم من هذا ايضا مدى اهتمام الاسلام بالعمل اهتماما بالغا حتى أنه شمل معظم سور القرآن فتارةً يدعو

---

(١) التوبة: ١٠٥

إلى العمل، وأخرى يحث عليه، وثالثة يظهر فضله وثوابه، والذى تجدر الاشارة إليه صيغة الأمر بالعمل حيث بلغت احدى عشرة آية (فى سبع سور من الكتاب العزيز) ومن ثم نتعرف عليها فى مواطنها، ونقف عندها ولو قليلا لنرى ماتهدف اليه..

١ـ جاء الأمر بالعمل للانجاز فى سورة سبأ، قال تعالى ﴿**أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ**﴾(١).

٢ـ جاء الأمر للتهكم فى سورة فصلت، قال تعالى ﴿**وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ**﴾(٢).

٣ـ جاء الأمر بالعمل للتهديد فى سورة الانعام، قال تعالى ﴿**قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾(٣).

٤ـ جاء الأمر بالعمل فى سورة فصلت، قال تعالى ﴿**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾(٤).

٥ـ جاء الأمر بالعمل للحث عليه فى سورة التوبة. قوله تعالى ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾(٥).

٦ـ جاء الأمر بالعمل لتعظيمه فى سورة المؤمنون. قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا**﴾(٦).

٧ـ جاء الأمر بالعمل للشرك فى سورة سبأ قوله تعالى ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾(٧).

ولاتخرج معانى الاحدى عشرة آية التى جاءت بصيغة الأمر عن هذه المعانى سالفة الذكر.. فهذا دليل على أن الله أمر بالعمل، وحثّ عليه، وأثنى على القائمين به، وأثابهم فى الدنيا، ووعدهم عليه فى الآخر خيراً كثيراً.

١- سبأ: ١١ ٢- فصلت: ٥ ٣- الأنعام: ١٣٥ ٤- فصلت: ٤٠
٥- التوبة: ١٠٥ ٦- المؤمنون: ٥١ ٧- سبأ: ١٣

وشأن الدعاء هو شأن العمل فالله أمر المسلمين بهما، وصلة الدعاء بالعمل صلة النوع بجنسه فأنواع العمل كثيرة ومنها الدعاء غير أن الدعاء هو أفضلها واعظمها.. أو من صلة الخاص بالعام أو من صلة الجزء بالكل إذ الدعاء عمل خاص داخل فى نطاق العمل بمفهومه العام والعمل نوعان ظاهر وهو عمل الحواس وباطن وهو عمل النفس والقلب ولا تنافى أبدا بين أن يعمل الانسان وبين أن يأخذ بالأسباب لكسب المال وبين أن يدعو ربه فى أن يرزقه المال الحلال وأن يوسع عليه دخله.. كما أنه لاتنافى بين العمل والقضاء والقدر وبخاصة بعد أن أمطنا اللثام عن حقيقتهما فيما سبق.

ومن حرص الإسلام أنه لم يحدد يوما فى الاسبوع ليكون عطلة للراحة بل ترك للمسلمين الحرية فى أن يختاروا اليوم الذى يرونه ملائما من غير تشبه بأحد إلا أنه اشترط عليهم إذا هم اختاروا غير يوم الجمعة يوم راحتهم أن يحرصوا على أداء الجمعة فى وقتها وأن ينصرفوا اليها تاركين كل شىء حتى مصدر قوتهم وهو البيع والشراء فقال تعالى:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠** ﴾(١).

فقد أعطى الاسلام للعمل الدنيوى من الاهتمام ما اعطاه لصلاة الجمعة إذ الحياة من غير تجمل لا يستقيم حالها ولا ينتظم أمرها.

أما أحاديث الرسول ﷺ فى الحث على العمل ودعوة المؤمنين الى مزاولته فكثيرة جدا نورد منها ما تيسَّر لنا جمعه من الصحاح والمسانيد.

روى البخارى وأحمد وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال:

«ما أكل أحد طعاما قط خيرا له من أن يأكل من عمل يده وأن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده».

---

(١) الجمعة: ٩ - ١٠

وروى أحمد والحاكم أن النبى ﷺ قال: «أطيب الكسب عمل الرجل بيده».. بل ان الأحاديث النبوية جعلت السعى على تحصيل لقمة العيش كالجهاد فى سبيل الله من حيث الأجر والثواب.

فقد روى الطبرانى[1] والبيهقى أن رجلا مر على النبى ﷺ فرأى أصحاب رسول الله من جَلَدَه ونشَاطَه، فقالوا يا رسول الله، لو كان هذا فى سبيل الله! فقال رسول الله ﷺ: إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله.. وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفّها فهو فى سبيل الله.. وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو ليس فى سبيل الله».

ولذا قال الرسول ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» رواه مسلم وأبو داود وقوله ﷺ: «أن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع» رواه ابن حبان فى صحيحه وقال عليه الصلاة والسلام: «والرجل راع فى بيت أهله ومسئول عن رعيته» رواه البخارى ومسلم وغيرهما..

ولقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأل شيئا من المال وهو قوى معافى، فقال له الرسول ﷺ أما فى بيتك شىء؟ قال بلى، حلس «كساء غليظ» نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب «نشرب فيه الماء، فقال الرسول: ائتنى بهما، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله بيده وقال: من يشترى هذين؟ قال رجل أنا آخذهما بدرهم قال رسول الله من يزيد على الدهم؟ مرتين أو ثلاثا، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما

---

(١) الإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير الطبرانى أحد الأئمة المعروفين، والحفاظ المكثرين، والطلاب الرحالين الجوالين، والمشايخ المعمّرين، والمصنفين والمحدثين، والثقات الإثبات المعدلين، سمع بالشام والعراق، وصنّف المعجم الكبير فى أسماء الصحابة الكرام، والأوسط فى غرائب شيوخه، والصغير فى أسماء شيوخه، وغير ذلك من الكتب، وروى عنه الكثيرون. قال ابن العميد: ما كنت أظن فى الدنيا حلاوة ألذ من الرياسة والوزارة التى أنا فيها حتى شاهدت مذاكرة سليمان بن أحمد الطبرانى.. وتمنى ابن العميد فى عبارة طويلة له أن يكون فى مكان الطبرانى بدل الوزارة والرياسة. وولد الطبرانى بطبرية من بلاد العجم سنة ستين ومائتين وتوفى بأصبهان سنة ستين وثلاثمائة، فعمره مائة سنة كاملة رضى الله عنه.

إياه، وأخذ الدرهمين فاعطاهما الانصارى، وقال له: اشتر بأحدهما طعاما فانبذه الى اهلك، واشتر بالآخر قدوما فائتنى به، فأتاه فشد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده، ثم قال: اذهب فاحتطب ولا أرينك خمسة عشر يوما، ففعل فجاء وقد اصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا، وببعضها طعاما، فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من أن تجىء والمسألة نكتة «علامة» فى وجهك يوم القيامة، أن المسألة لا تصلح إلا لذى ثلاث: لذى فقر مدقع شديد الفقر، أو لذى غرم مفظع «كثير الدين» أو لذى دم موجع والدم الموجع هو الذى يتحمل دية عن قريبه القاتل يدفعها إلى أولياء المقتول ولو لم يفعل قتل قريبه الذى يتوجع لقتله».

رواه أبو داود والبيهقى والترمذى.

ولقد روى عن رسول الله ﷺ ما يحث على العمل بما لا مزيد عليه فقد قال رسول الله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى» والعُليا هى المنفقة والسفلى هى السائلة.

الفصل الرابع

الدعاء والقضاء والقدر

الدعاء كما عرفنا سابقا. . هو الطلب على سبيل التضرع والابتهال الى الله تعالى بالسؤال فى جلب خير أو دفع ضر أو شكر نعمة أو دوامها، أو مناجاة لله تعالى أو هو استدعاء العبد ربه ليدفع عنه ضرا أو يجلب له خيرا أو يديم عليه نعمة فتعاريف الدعاء كثيرة غير أنها لاتخرج عن كونها طلبا مصوراً بصورة «ما» يرفعه العبد طولاه رجاء التفضل عليه بالقبول والاجابة وكذا مشتقاته ومدلولاته وكذلك القضاء والقدر ما هما إلا علم الله أزلا بالأكوان على ماهى عليه أو إرادته تعالى الأكوان على ماهى عليه أو إيجاد الأكوان على الهيئة والصورة التى عليها. . فلا منافاة بين الدعاء كطلب وبين كل من القضاء والقدر كعلم لله أو إرادة له أو قدرة. . غير أن المقام هذا لايكتفى فيه بالاشارة بل لابد فيه من الايضاح والتبيين لأن الأمر عظيم وكم هوت فيه أقدام وزلت آراء. والله المستعان.

أما صلة الدعاء بكل من القضاء والقدر فتوضحها أحاديث رسول الله ﷺ والتى نوردها فيلما يلى:

١- روى ثوبان عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد فى العمر إلا البر، وأن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» رواه ابن حبان[١] فى صحيحه والحاكم واللفظ له وقال صحيح الاسناد».

٢- عن عائشة رضى الله قالت قال رسول الله ﷺ:

«لا يغنى حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وأن البلاء لينزل

---

(١) هو الفقيه أبو عبد الله بن يحى بن حبان منقذ بن عمرو المازنى الأنصارى، كانت له حلقة فى مسجد النبى ﷺ، وتوفى سنة إحدى وعشرين ومائة.

فيلقاه الدعاء فيعتلجان» (يتصارعان ويتدافعان الى يوم القيامة».

رواه البزار[1] والطبرانى[2] والحاكم[3] وقال صحيح الإسناد.

٣- وعن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

«لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد فى العمر إلا البر».

رواه الترمذى وقال حديث حسن غريب..

فهذه الأحاديث الشريفة وما جاء على منوالها تبين الصلة الوثيقة بين الدعاء وكل من القضاء والقدر.

إذ فى حديث ثوبان بين الرسول أن القدر لا يرده إلا الدعاء..

وفى رواية سلمان[4] بين المصطفى أن القضاء لا يرده إلا الدعاء.. فالقضاء حكم معد للنفاذ.

والدعاء رجاء من العبد مرفوع منه إلى مولاه للحد أو التخفيف من هذا الحكم الشامل بالنفاذ.

ولذلك يوضح الحديث الأول والثالث أن الدعاء من اعظم النعم الالهية على البشر بل وليس من نعم الله تعالى على الانسانية مثل الدعاء إذ هو وحده الذى يستطيع فقط أن يرد القضاء أما غيره من العبادات فلا..

ويصور الحديث الثانى كيفية رد الدعاء لكل من القدر والقضاء... فيقول

---

(١) هو الإمام أبو على الحسن بن الصباح البزاز، سمع سفيان بن عيينه، وأبا معاوية وطبقتهما، وكان أحمد بن حنبل يرفع قدره ويجله ويحترمه، وروى عنه البخارى، وقال أبو حاتم: صدوق. وكانت له جلالة عجيبة، توفى رحمه الله ببغداد سنة تسع وأربعين ومائتين.

(٢) الطبرانى سبقت ترجمته.

(٣) الحاكم: هو الإمام الحاكم أبو عبدالله النيابورى المتوفى سنة خمس وأربعمائة، وقد قال عنه ابن خلدون: «وقد ألف الناس فى علوم الحديث وأكثروا، ومن فحول علمائه وأئمته أبو عبد الله الحاكم وتآليفه فيه مشهورة، وهو الذى هذبه، وأظهر محاسنه».

(٤) هو أبو عبد الله سلمان الفارسى، ويُقال له: سلمان بن الإسلام، وسلمان الخير، عاش (٢٥٠) سنة وكان أول مشاهده الخندق، توفى رضى الله عنه بالمدائن سنة (٣٦) هـ.

الرسول ﷺ: «وأن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة».

وتعبير المصطفى عن هذا التنازع بالاعتلاج والتصارع لهو دليل حى على أثر مفعول الدعاء فى القضاء.

إذ هو بهذا البيان يصور القضاء على أنه سهم بارز الى دائرة التنفيذ كاد أن يصل هذا السهم الى هدفه لولا لقاء الدعاء به بين السماء والأرض ولذلك استطاع الدعاء ايقاف التنفيذ لا إيطال الحكم إذ الحكم فى طريق التنفيذ لكن هذا الطريق طويل فقد يبطل سهم القضاء إذا كان فى علم الله تعلق بطلانه على هذا الدعاء المستجاب أو يكون فى علم الله أزلا شل حركة ذلك القضاء أو تخفيف وطأته أو يكون فى علم الله أزلا تصارعهما وتنازعهما على امتداد الزمن إلى يوم القيامة وذلك ما توضحه وتثبته أحاديث رسول ﷺ التى على منوال هذا الحديث الثانى.

ولهذا كان من الأحاديث المحمدية المأثورة: «اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه»..

ولقد وفق القاضى أبو بكر العربى فى تفسير أحاديث رسول الله ﷺ الواردة فى هذا المقام والحاملة لهذه المعانى توفيقا ممتازا حيث أبان الصلة التى تربط الدعاء بالقضاء فقال:

الدعاء مناجاة الله تعالى لما يريد العبد من جلب منفعة أو دفع مضرة.. ومن القضاء رد البلاء بالدعاء فهو سبب لذلك واستجلاب لرحمة المولى كما أن الترس سبب لرد السهم والماء سبب خروج النبات من الأرض والدعاء سلاح المؤمن.

فإذا كان العبد دائم الذكر والدعاء والتضرع إلى الله تعالى فإن الملائكة تحفظه من جميع المكاره فإذا جاءه ضرر أو مكروه من أحد المخلوقين منعته الملائكة وصدت عن وجهه المكاره فلا يزال محفوظا من جميع الجهات إلا من جهة فوق فان القضاء والقدر اسلمته الملائكة لذلك فينبغى أن تحرس جهة فوق بالعمل الصالح فانه لابد لكل عبد طريق إلى السماء يصعد منه عمله وينزل منه رزقه ومنه تقبر روحه ومنه تصعد..

فإذا كان العبد مواظبا على الطاعات كثير الدعاء مملوءة سبله بالخيرات فيحتبس

ذلك البلاء عند النزول ولا يجد منفذا إليه فيكون دعاؤه وعمله قد حجبا عنه البلاء لأن الدعاء من الله تعالى بالمكان العالى فيتصادم البلاء والدعاء فتارة يغلب الدعاء وتارة يغلب البلاء فهما كالمتصارعين.. فإن غلب الدعاء رفُع البلاء وخرق السموات وارتقى إلى الله تعالى..

وإن غلب البلاء أزال الدعاء ونزل على العبد واليه الاشارة بقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾[1]

وقال عليه الصلاة والسلام: «لايزال البلاء والدعاء يقتتلان إلى يوم القيامة».. فهذا معنى كون الدعاء سببا لرد البلاء..

ويُفهم من تفسير القاضى أبى بكر العربى للتصارع بين الدعاء والقضاء أن الظفر لا يكون إلا حيث يريد الله تعالى لأحدهما الغلبة على الآخر فإن قُبل الدعاء واستجيب عند الله فتبرزه المشيئة الآلهية فى صورة المنتصر على البلاء.

وإن رُفض الدعاء ولم يستجب لدى الله تبرزه المشيئة فى صورة المغلوب على أمره بانتصار البلاء عليه..

وبناء على ذلك يفهم أن كل دعاء ليس مستجاب البتة فقد يستجاب وقد لايستجاب.

هل الدعاء أفضل أم تركه والاستسلام للقضاء أفضل؟

اختلف العلماء فى ذلك إلى رأيين اثنين:

الرأى الأول: رأى الجمهور وهم القائلون بأن الدعاء افضل من تركه والركون إلى الاستسلام للقضاء والقدر.. ثم ساقوا أدلتهم فى هذا المقام.

١- قال الرسول ﷺ «الدعاء مخ العبادة».

(أخرجه الترمذى من حديث أنس يرفعه)

---

(٢) يوسف : ٢١

٢- قال الرسول ﷺ «من لم يسأل الله يغضب عليه»

(أخرجه الترمذى وصححه ابن حبان والحاكم).

٣- قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

«إنى لا أحمل همّ الاجابة ولكن همّ الدعاء فإذا أتممت الدعاء علمت أن الاجابة معه».

وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

لو لم ترد نيل ما أرجو وآمله من جود كفك ما عودتنى الطلبا

ثم قال هذا الفريق لقد تواترت الأخبار عن الرسول ﷺ بالترغيب فى الدعاء والحث عليه..

فالله سبحانه يحب تذلل عباده بين يديه وسؤالهم إياه وطلبهم حوائجهم منه وشكواهم منه إليه وعياذتهم به منه وفرارهم منه إليه.

كما قيل:

قالوا اتشكوا إليه ماليس يخفى عليه

فقلت ربى يرضى ذل العبيد لديه

الرأى الثانى: هو من رأى أن الاستسلام للقضاء والقدر أفضل من الدعاء واستدلوا على صحة رأيهم هذا بقول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[1].

قائلين بأن آخر الآية دل على أن المراد بالدعاء هو العبادة.

(رد الشيخ تقى الدين السبكى)

غير أن االشيخ تقى الدين السبكى[2] تعقبهم ورد عليهم وعلى من سار على

---

(١) غافر: ٦٠.

(٢) السبكى نسبة الى سُبك، احدى قرى المنوفية حيث ولد عام ٦٨٣هـ، وقد ألف فى التفسير والسيرة والمعاملات. توفى عام ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م.

دربهم بقوله حمل الدعاء فى الآية على ظاهره أولى:

ثم عرج على قولهم فى الاستدلال بأن الله ذكر فى آخر الآية ما يدل على أن المراد من الدعاء هو العبادة وهو قوله تعالى:

﴿ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[1]

قائلا أما وجه الربط بين الدعاء والعبادة.. فهو أن الدعاء أخص من العبادة فمن استكبر عن العبادة استكبر عن الدعاء وعلى هذا فالوعيد فيه إنما هو فى حق من ترك الدعاء استكبارا ومن فعل ذلك كفر.

وأما من تركه لقصد من المقاصد فلا يتوجه اليه الوعيد المذكور.. وإن كنا نرى أن ملازمة الدعاء والاستكثار منه أرجح من القول بتركه لكثرة الأدلة الواردة فيه..

(رأى الإمام القشيرى فى الرسالة)[2]

ثم ذكر القشيرى فى الرسالة ملخصا موجزا عن الرأيين ودليل كل متسائلا أى الأمرين أولى: الدعاء أو السكوت والرضا فقال:

(أ) قيل الدعاء والذى ينبغى ترجيحه لكثرة الأدلة ولما فيه من إظهار الخضوع والافتقار.

(ب) وقيل السكوت والرضا أولى لما فى التسليم من الفضل ثم ذكر شبهة هؤلاء قائلا:

إن كان الداعى لا يعرف ما قدر له فدعاؤه إن كان على وفق القدر فهو تحصيل الحاصل وإن كان على خلافه فهو معاند.. ثم ذكر الرد على هذا التلازم قائلا: إن اعتقد أنه لايقع إلا ما قدّره الله تعالى كان إذعانا لا معاندة ولأن فائدة الدعاء تحصيل الثواب بامتثال الأمر ولاحتمال أن يكون المدعو به موقوفا على الدعاء لأن الله خلق الأسباب والمسببات.

---

(١) غافر: ٦٠

(٢) القشيرى هو عبد الكريم بن هوازن شيخ خراسان فى عصره. من مصنفاته لطائف الاشارات فى التفسير، والرسالة القشيرية/ توفى عام ٤٦٥/ ١٠٧٣م

ولقد ذكر الامام النووى فى مؤلفه الأذكار كلاما حسنا نقلا عن رسالة الامام القشيرى أحببت ذكره فى هذا المقام قال:

اختلف الناس فى أن الافضل الدعاء أم السكوت والرضا؟

فمنهم من قال: الدعاء عبادة للحديث السابق «الدعاء هو العبادة»

ولأن الدعاء إظهار الافتقار الى الله تعالى:

وقالت طائفة: السكوت والخمود تحت جريان الحكم أتم والرضا بما سبق به القدر أولى..

وقال قوم: يكون صاحب دعاء بلسانه ورضا بقلبه ليأتى بالأمرين جميعا..

ثم قال القشيرى: والأولى أن يُقال الأوقات مختلفة.

(أ) ففى بعض الأحوال السكوت أفضل من الدعاء وهو الأدب.

(ب) وفى بعض الأحوال الدعاء أفضل من السكوت وهو الأدب.

وإنما يُعرف ذلك بالوقت فإذا وجد فى قلبه إشارة الى الدعاء فالدعاء أولى به، وإذا وجد اشارة الى السكوت فالسكوت أتم.. ثم قال: ويصح أن يُقال ما كان للمسلمين فيه نصيب، أو لله سبحانه وتعالى فيه حق فالدعاء أولى، لكونه عبادة وإن كان لنفسك فيه حظ فالسكوت أتم[1].

وقالوا فى هذا لأن الخير المتعدى أولى من الخير القاصر على واحد.

والمتأمل لدعوة نبى الله زكريا عليه السلام: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾[2]. يجد أنها لحق الحق وليست لحظ نفس زكريا عليه السلام ولذلك استجاب الله له.

---

(١) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية ٧/ ٢٣٥

(٢) مريم: ٦.

عن أنس بن مالك[1] رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال «عجبا لأمر المؤمن، لايقضى الله له شيئا إلا كان خيراً له»[2].

وروى مسلم عن صهيب بن سنان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن اصابته سراء شكر وكان خيراً له. وإن اصابته ضراء صبر فكان خيراً له[3]

(١) أنس بن مالك: هو الصحابى الجليل أبو حمز أنس بن مالك الأنصارى البخارى خادم رسول الله ﷺ، وقد قدم إلى المدينة وهو ابن عشر سنين، والتحق بخدمة الرسول، ودعا له الرسول بكثرة المال والولد، والبركة فيهما وفيما أوتى، فكان نخله يثمر فى العام مرتين، وتوفى رضى الله عنه سنة ثلاث وتسعين على الراجح، وقيل سنة تسعين أو إحدى أو اثنتين وتسعين.

(٢) رواه أحمد في مسنده: ٥/ ٢٤. سلسلة الأحاديث الصحيحة: حديث رقم ١٤٨.

(٣) رواه أحمد ومسلم عن صهيب/ صحيح.

الفصل الخامس

رأى العلماء فى نفع الدعاء

مذهب أهل السُّنة وما عليه جمهور العلماء يقولون بنفع الدعاء مطلقا، واستدلوا على ذلك بما يلى:

أما دليلهم العقلى فينحصر فى قولهم: «لو لم يكن الدعاء نافعا ما أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين به، لكنه أمرهم به فثبت أنه نافع ومفيد، ولهذا دعا الرسل وفى مقدمتهم المصطفى ﷺ وسار على نهجه فى الدعاء صحابته رضوان الله عليهم والتابعون والأولياء الصالحون.. والكتب السماوية مليئة بالأدعية وبخاصة القرآن الكريم، وكذا أحاديث الرسول ﷺ.

وأنبياء الله عليهم الصلاة والسلام كانوا يجتهدون فى الدعاء. وقد حكى القرآن الكريم لنا نماذج متنوعة من دعواتهم فهذا ابراهيم يدعو الله فيقول ﴿**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ**﴾(١)

وهذا موسى عليه السلام يضرع الى الله فيقول ﴿**قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾**﴾(٢)

وهؤلاء الصالحون من عباد الله يكثرون من التضرع اليه فيقولون: ﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾**﴾(٣)

فعلينا أن نتأسى بهؤلاء الأخيار، فنكثر من الدعاء بجد واخلاص لكى نفوز كما

---

(١) إبراهيم: ٤٠، ٤١.

(٢) طه: ٢٥ ـ ٢٨.

(٣) البقرة: ٢٨٦.

فازوا، وننال رضا الله كما نالوا، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم[1].

ثم قالوا: تتميما للدليل العقلى؛ ينقسم القضاء بحسب اللوح المحفوظ، لا بحسب علم الله تعالى، الى قسمين: قضاء معلق على الدعاء أو غيره، وقضاء مبرم والدعاء ينفع فيهما على السواء.. أما نفعه فى القضاء المعلق عليه فأمره ظاهر لا يحتاج الى ايضاح إذ لا استحالة فى رفع القضاء فى هذه الحالة إذا حصل الدعاء واستجيب.

كما لا استحالة فى نزول القضاء المعلق على الدعاء إذا حصل الدعاء..

أما كون الدعاء ينفع فى القضاء المبرم فهذا ما يحتاج الى ايضاح، إذ كيف يكون مبرما، وينفع الدعاء فيه. قال أهل السنة: الدعاء لا يرفع القضاء المبرم، وإنما يرفع درجات المدعو له، أو يصير القضاء المبرم بطيئا فى سيره وتنفيذه، ويجعله مخففا سهلا مطاقا وذلك من لُطْف الله ورحمته.

أما أدلتهم النقلية فكثيرة منها: قوله تعالى: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ وفى الحديث الشريف ما رواه ابن عمر رضى الله عنهما حيث قال: قال رسول الله ﷺ: «من فُتح له منكم باب الدعاء فتحت له ابواب الجنة، وما سُئل الله شيئا يعنى أحب إليه من أن يُسأل العافية»[2].

وعنه أيضا قال رسول الله ﷺ: «أن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء»[3].

٢- قوله ﷺ: «الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والارض[3].

٣- كما استدلوا أيضا برواية ثوبان عن الرسول ﷺ والذى مرّ بيانه آنفا والذى أوله: «لا يرد القدر إلا الدعاء».

وقد أجمع السلف والخلف على نفع الدعاء فى كل شىء[4].

---

(١) من كتاب الدعاء لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد السيد طنطاوي شيخ الجامع الأزهر. ص ٦٤.

(٢) رواه الترمذى والحاكم وكلاهما من رواية عبد الرحمن بن أبى بكر المليكى وهو روى الحديث عن موسى بن عقبة عن نافع عنه.. وقال الترمذى حديث غريب، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

(٣) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد، ورواه أبو يعلى من حديث على.

(٤) من كتاب (مذكرات التوحيد) ص ٣٥ لفضيلة الشيخ حسين عبد الرحيم مكى.

قال الإمام الغزلى رحمه الله: «فإن قلت: فما فائدة الدعاء والقضاء لا مردّ له؟ فأعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء، واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض. فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لايحمل السلاح، وقد قال تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[1] وأن لا نسقى الأرض بعد بذر البذر، فيقال: إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر، وإن لم يسبق لم ينبت. بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذى هو كلمح البصر، أو هو أقرب، والذى قدر الخير قدره بسبب، والذى قدر الشر لدفعه سببا، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته»[2].

وخلاصة ذلك: أنه لاتناقض اطلاقا بين الدعاء وبين القضاء والقدر، لأن الدعاء ماهو إلا سبب من الأسباب التى تقضى ببركتها أمور، وتتحقق آمال، وتدفع كروب.

وإن مثل الدعاء كمثل الدواء فكما أنه لايصح للمريض أن يترك التداوى اتكالا على ماكتبه الله عليه سيحدث سواء تناول الدواء أو تركه، فكذلك لايصح للمسلم أن يهجر الدعاء للذى هو مخ العبادة اعتماداً على أن ما قُدرّ فسوف يكون.

لأن العاقل من الناس هو الذى يتعاطى الأسباب بعزم وإخلاص، ثم بعد ذلك يترك النتائج لله الواحد القهّار.

وأدعم حديثى سالف الذكر بما ذكره ابن قيم الجوزية[3] قال: والله سبحانه وتعالى يحب تذلل عبيده بين يديه، وسؤالهم إياه، وطلبهم حوائجهم منه، وشكواهم اليه، وعياذهم به منه، وفرارهم منه إليه، كما قيل:

قالوا أتشكوا إليه ما ليس يخفى عليه

فقلت ربى يرضى ذل العبيد لديه

وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا عبد الوهاب عن اسحاق عن مطرف بن عبد الله قال: «تذاكرت: ما جماع الخير فإذا الخير كثير: الصيام والصلاة.. وإذا هو فى يد الله تعالى، وإذا أنت لاتقدر على مافى يد الله إلا أن تسأله فيعطيك فإذا جماع الخير الدعاء.

---

(١) النساء: ٧١.

(٢) احياء علوم الدين جـ١ ص ٣٣٦.

(٣) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ص ١٠٣، ١٠٤.

الفصل السادس
المبحث الأول

أدلة إجابة الدعاء

فى القرآن الكريم والسنة النبوية

يمكن القول بوجوب إجابة أدعية الداعين عقلا وشرعا على أى صورة كان حصولها وفى أى مكان أو زمان وذلك لتضافر الأدلة القرآنية والنبوية وبخاصة إذا استكمل الدعاء أركانه وشروطه وآدابه وسائر مؤهلات قبوله.

(أ) **الأدلة القرآنية**: = خمسة أنواع

١- **النوع الأول**:- هى الآمرة بالدعاء وكل أمر من الله تعالى للعباد يحظون بالثواب عليه إذا التزموا به وعملوا بمقتضاه ويتعرضون للمساءلة والعقاب عليه إذا أخلوا به وتجنبوا مزاولته.. كالصلاة والزكاة. ومن هذا اللون من الأوامر قوله تعالى:

﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى..** ﴾(١).

﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾(٢).

٢- النوع الثانى: هى الآيات المشيرة الى غضب الله تعالى على من ترك الدعاء وغضبه تعالى على هؤلاء دليل على حبه لاستنجاد عباده به وهذا مستلزم لرضاه المستلزم لاجابة الداعى وتحقيق مبتغاه.

ومن هذا اللون قوله تعالى: ﴿ **فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا..** ﴾(٣)

---

(١) البقرة: ١٨٦

(٢) غافر: ٦٠

(٣) الأنعام: ٤٣

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ ﴾(١).

٣- النوع الثالث: الأدعية التى لم ينسبها القرآن الكريم لأحد والتى تعتبر بحق نماذج إلهية للدعاء ساقها الله تعالى لتكون خير قدوة يقتدى بها البشر فى صياغة أدعيتهم، ونماذج ينسجون على منوالها، ولعل الحكمة الإلهية من هذه الأسوة هو قبول ما قدموا من دعاء والاستجابة لما طلبوا من رغبات.. من هذا اللون قوله تعالى:

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾(٢)

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا.. ﴾(٣)

٤- النوع الرابع: الآيات القرآنية التى نصت على استجابة الله لمن دعاه من سائر الخلق، وهذه الاستجابة دليل واضح على وفاء الله تعالى بوعده فى الاستجابة لمن دعاه فاستجاب للخليل ابراهيم حينما قال:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ.. ﴾(٤).

واستجاب لموسى الكليم حينما قال: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾(٥).

واستجاب لجند طالوت حينما قالوا: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾(٦)

٥- النوع الخامس: الآيات القرآنية التى وضعت مواصفات وشروطا لقبول الأدعية ولا يتأتى هذا الاهتمام بالدعاء إلا إذا كانت الاجابة جديرة بالتنفيذ من هذااللون قوله تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾(٧)

﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا.. ﴾(٨).

---

(١) المؤمنون: ٧٦.
(٢) الفاتحة: ٦.
(٣) البقرة: ٢٨٦.
(٤) البقرة: ١٢٩.
(٥) يونس: ٨٨.
(٦) البقرة: ٢٥٠
(٧) الأعراف: ٥٥
(٨) الأعراف: ٥٦

هذه الأنواع الخمسة دالة على أن الله تعالى لا يخلف وعده الذى قطعه فى قرآنه المجيد من استجابته لمن رفع اليه أكف الضراعة مستنجدا وسائلا.

(ب) الأدلة القدسية:

ورد فى «باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة» من «كتاب الرقاق» من صحيح مسلم شرح النووى ص ١٧ من الأحاديث القدسية التى تؤيد وقوع الاجابة وتحقيقها؛ من هذه الأحاديث مايلى:

قال مسلم فى صحيحه: «حدثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة قال سمعت أبا عبيدة يحدث عن أبى موسى[1] عن النبى ﷺ قال أن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها».

قال مسلم فى صحيحه: «حدثنى عبد الأعلى بن حماد حدثنا حماد ابن سلمة عن اسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن عبد الرحمن بن أبى عمرة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ. فيما يحكى عن ربه عز وجل - قال أذنب عبدى ذنبا فقال اللهم اغفر لى ذنبى فقال تبارك وتعالى أذنب عبدى ذنبا فعلم ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال أى رب أغفر لى ذنبى فقال تبارك وتعالى عبدى أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال أى رب اغفر لى ذنبى فقال تبارك وتعالى أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب اعمل ماشئت فقد غفرت لك».

فقال عبد الأعلى لا أدرى أقال فى الثالثة أو الرابعة أعمل ماشئت.

قال أبو احمد حدثنى محمد بن زنجوية القرشى القشيرى حدثنا عبد الاعلى بن حماد النمرسى بهذا الاسناد.

---

(١) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن الأشعر (وهو نبة بن أود) لقب بالأشعر لأنه وُلد على بدنه شعر، فالأشعريون منسوبون إليه، وهو إمام كبير، صاحب رسول الله ﷺ، التميمى الفقيه المقرئ، قرأ على النبى ﷺ، وأقرأ أهل البصرة وفقّههم فى دينهم، استعمله النبى ﷺ على اليمن، وولى أمرة الكوفة لعمر رضى الله عنه، وغزا وجاهد مع النبى ﷺ وحمل عنه علمًا كثيرًا، وكان من أحسن الناس صوتًا بالقرآن، توفى رضى الله عنه بالكوفة، وقيل بمكة سنة (٥٠) هـ، وقيل غير ذلك.

(جـ) الأدلة النبوية:

الأحاديث المحمدية الشريفة فى هذا المقام كثيرة جدا وكلها جازمة بوقوع اجابة دعاء الداعى إذا توفرت فيه مقاوماته وقبوله وسوف نكتفى هنا بنماذج معدودة دون التعرض لشرحها.

١- فى شرح البخارى لابن أبى جمرة[١] عن النبى ﷺ أنه قال: «من فتح له باب الدعاء فتحت له الخيرات».

ومن أهم هذه الخيرات إجابة الداعى وتلبية دعوته.

٢- وفى الترغيب والترهيب عن النبى ﷺ قال:

«من فتح له منكم باب الدعاء فقد فتحت له أبواب الرحمة»

وأن من أعظم هذه الرحمات للداعى أن يستجاب دعاؤه.

٣- وفى مسند ابن ماجه[٢] فى رواية له عن النبى ﷺ قال: «من لم يدع الله سبحانه غضب عليه».

ويتضح مدى أثر غضب الله تعالى فيما ذكره النبى ﷺ على لسان الحق جل وعلا فى حديثه القدسى:

«أنا الله لا إله إلا أنا، إذا رضيت باركت وليس لبركتى منتهى، وإذا غضبت لعنت ولعنتى تبلغ السابع من الولد»[٣].

٤- قال مسلم فى صحيحه[٤] حدثنى ابراهيم بن عبيد بن رفاعة عن محمد بن

---

(١) ابن أبى جمره: هو عبد الله بن سعد الأزدى الأندلسى، من علماء الحديث، اشتهر بكتابة جمع النهاية الذى اختصر به صحيح البخارى، ثم شرح هذا المختصر فى كتابه الرائع «بهجة النفوس» وتحليها بمعرف ما لها وما عليها، توفى رحمه الله عام ٦٩٥هـ/١٢٩٦م.

(٢) ابن ماجه: جـ٢ ص ١٢٥٨.

(٣) الداء والدواء لابن القيم: ص ١٩.

(٤) صيح مسلم كتاب التوبة جـ ١٧.

كعب الفرظى عن أبى حيرمة عن أبى أيوب الانصارى[1] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أنكم لم تكن لكم ذنوب يغفرها الله لكم لجاء الله بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم».

٥- ومن أصرح الأقوال المنسوبة الى رسول الله ﷺ والدالة على أن اجابة الله تعالى لمن دعاه واقعة لاشك فيها ما رواه ابو هريرة رضى الله عنه حيث قال قال رسول الله ﷺ:

«ما أذن الله تعالى لعبد فى الدعاء حتى أذن له فى الاجابة» وقوله عنه أيضا: (ليس شىء أكرم على الله من الدعاء) وكون الدعاء أكرم الاشياء على الله تعالى دليل على اجابة من زاوله.

(د) ان من أهم الآثار الدالة على إجابة الله تعالى للدعاء مايلى:

١- قال عمر بن الخطاب[1] رضى الله عنه لأصحابه لستم تنصرون بكثرة وإنما تنصرون من السماء فإذا الهمتم الدعاء فإن الاجابة معه قال تعالى:

---

(١) هو الصحابى الجليل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى، من السابقين إلى الإسلام، وممن شهدوا العقبة، ومناقبه كثيرة، وموضع بيته بالمدينة هو المكان الذى نزل به رسول الله ﷺ يوم الهجرة، وفيه بركت ناقته، ولذلك يوجد به موضع يُقال له «الميرك»، وهم يعنون ميرك الناقة، وقد توفى أبو أيوب الأنصارى سنة إحدى وخمسين للهجرة أو اثنتين وخمسين والأول أرجح، وكانت وفاته بالقسطنطينية حينما كان مع أصحابه يحاصرونها وقبره كما ذكر ابن العماد الحنبلى فى شذرات الذهب تحت سورها يُستسقى به وتبرك.

(٢) * عمر بن الخطاب: هو أبو حفص أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب القرشى العدوى الخليفة الثانى من الخلفاء الراشدين، مضرب المثل فى العدل، والشدة فى الحق والحرص على الدين والصدع بالصدق، ويجتمع نسبه مع الرسول فى كعب، وهو أول من سُمى بأمير المؤمنين، وأول من وضع التاريخ الهجرى، ودون الدواوين ومصّر الأمصار، ونظم الدولة الإسلامية الواسعة، وكان لا تأخذه فى الله لومة لائم، وصفاته ومناقبه أكثر من أن تُذكر هنا، وكان إذا وقع بالمسلمين أمر يكاد يهلك اهتمامًا بأمرهم. وكان يأتى المجرزة ومعه الدرة فكل من رآه يشترى لحمًا يومين متتابعين يضربه بالدرة، ويقول له: هلا طويت بطنك لجارك وابن عمك؟.. وكان إذا حصل بالناس هم يخلع ثيابه ويلبس ثوبًا قصيرًا لا يكاد يبلغ ركبتيه، ثم يرفع صوته بالبكاء والاستغفار وعيناه تندفان حتى يغشى عليه، وكان فى آخر حياته يكثر من ترديد هذا الدعاء «اللهم كبرت سنى، وضعفت قوتى، وقلت حيلتى، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى إليك غير مطيّع ولا مفرط، اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك، واجل موتى فى بلد رسولك عليه الصلاة والسلام». واستمرت خلافته أكثر من عشر سنين، ثم مات شهيدًا، طعنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين، واستشهد وله ثلاث وستون سنة، ودُفن مع صاحبيه بإذن عائشة رضى الله عنها وسيرته مبسوطة مشهورة.

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[2].

٢-وعنه ايضا قال: «إنى لا أحمل هم الاجابة ولكن أحمل همّ الدعاء. فإذا ألهمت الدعاء علمت أن الاجابة معه».

٣- قال رجل لرسول الله ﷺ أوصنى قال أوصيك بالدعاء فإن معه الاجابة وعليك بالشكر فإن معه الزيادة وأنهاك عن المكر فإنه لايحيق إلا بأهله».

٤- عن الحسن[3] أنه دخل على أبى عثمان النهدى[4] يعوده وهو مريض فقيل لأبى عثمان يا أبا عثمان ادع الله بدعوات فقد بلغت فى دعاء المريض ماقيل فيه، قال الحمد لله وأثنى عليه وتلا آيات من كتاب الله تعالى وصلى على النبى ﷺ ثم رفع يده ورفعنا أيدينا فدعا فلما وضعنا أيدينا قال أبشروا فو الله لقد استجاب الله لكم فقال الحسن أتأتلى على الله؟! قال نعم يا حسن لوحدثتنى بحديث لصدقتك فكيف لا أصدقه وهو يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

فلما خرجوا قال الحسن انه لأفقه منى.

٥- روى أن موسى عليه السلام سأل ربه فقال أى ساعة أدعوك يارب فتستجيب لى فيها فقال أنت عبدى وأنا ربك فمتى دعوتنى استجب، فعاوده مراراً فقال له ربه ادعنى فى كبد الليل فإنى استجيب وإن دعانى فيها عشارى[5].

---

(١) غافر: ٦٠.

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) هو الحسن بن على بن أبى طالب الهاشمى أبو محمد، سبط رسول الله ﷺ، وريحانة أمير المؤمنين ولد سنة ثلاث من الهجرة. روى عن النبى ﷺ أحاديث حفظها عنه، منها حديث القنوت فى الوتر، وكان يشبه رسول الله ﷺ، بويع بالخلافة بعد مقتل أبيه على رضى الله عنه، ثم تنازل عنها لمعاوية بن أبى سفيان لما رأى أن جيشه وجيش معاوية سيتقتلان «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» وقد كان كذلك، مات رضى الله عنه بالمدينة المنورة ودُفن بالبقيع، وأختُلِف فى سنة وفاته، فقيل سنة تسع وأربعين، وقيل خمسين، وقيل غير ذلك.

(٤) ** أبو عثمان النهدى: هو عبد الرحمن بن مل. مخضرم من كبار التابعين، محدث ثقه عابد، مات سنة ٩٥ هـ وقيل بعدها (تقريب التهذيب).

(٥) كتاب تنبيه الغافلين للشيخ نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندى: باب الدعاء ص ١٤٤.

٦- وقال بعض العارفين أقرب الدعاء من الاجابة.

الدعاء الخالى وهو أن يكون صاحبه مضطرا لابد له أن يدعو من أجل مانزل به، ويفسر ابن عطاء الصفة التى يكون عليها المضطر فيقول كأن يكون العبد كالغريق وكالملقى فى مفازة من الأرض وقد اشرف على الهلاك فمن صدق فى الالتجاء إلى الله والاستعانة به أجيبت دعوته فى الحال قال تعالى:

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾(١).

٧- ويقول الشاعر استدلالا على استجابة الله تعالى للدعاء

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه من جود كفك ما عودتنى الطلبا

٨- ومما يدل على تحقيق الاجابة ما جاء فى كتاب تنبيه الغافلين للمحدث الشيخ نصر بن محمد بن ابراهيم السمرقندى(٢).

قال الفقيه رحمه الله: «يقصد نفسه ولعل اتباعه هم الذين طبعوا هذا الكتاب»

- حدثنا أبى قال حدثنا أبو بكر ابراهيم قال حدثنا سالم بن أبى مقاتل القاضى عن أبى معشر عن محمد بن كعب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال من رزق خمسا لم يحرم خمسا:

- من رُزق الشكر لم يحرم الزيادة لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٣).

(ب) ومن رُزق الصبر لم يحرم الثواب لقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٤).

---

(١) النمل: ٦٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) إبراهيم: ٧.

(٤) الزمر: ١٠.

(جـ) ومن رزق التوبة لم يحرم القبول لقوله تعالى:

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾[1].

(د) ومن رزق الاستغفار لم يُحرم المغفرة لقوله تعالى:

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾[2].

(هـ) ومن رزق الدعاء لم يحرم الاجابة لقوله تعالى:

﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[3].

وقد روى السادس وهو ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾[4].

---

(١) الشورى: ٢٥.

(٢) نوح: ١٠.

(٣) غافر: ٦٠.

(٤) سبأ: ٣٩.

المبحث الثانى

أنواع إجابة الدعاء ودليلها

ثبت من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية سالفة الذكر أن الله تعالى يجيب دعوة الداعين والمستغيثين به وبالرغم من يقين المسلم بذلك غير أنه تتوارد على نفسه تساؤلات من أهمها:

(أ) لماذا نجد الكثير من الخلق يدعون ولا صدى لاستجابة دعائهم ظاهر؟!

(ب) كيف يمكن التوفيق بين الجزم بوقوع الاجابة وعدم حصول بعضها فى واقع الحال؟

(جـ) على أى صورة تقع الاجابة؟ هل بتحقيق المطلوب بعينه أم لا؟ وهل على الفور أو التراخى؟

هذه التساؤلات وما على دربها توضحها وتجيب عليها الأحاديث النبوية الآتية:

الحديث الأول:

١- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال - قال رسول الله ﷺ:

«ما من رجل يدعو الله إلا استجاب له، فإما أن يعجل له فى الدنيا وإما أن يدخر له فى الآخرة، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل»[1] هذا الحديث الشريف يوضح لنا أن اجابة الله دعاء من استنجد به تتمثل فى احدى صور ثلاث:

الصورة الأولى: عبر عنها الحديث بقوله: «فإما أن يعجّل له فى الدنيا»

وذلك بتحقيق كل ما طلب أو بعضه أو ما يماثله على الفور أو التراخى.

الصورة الثانية: وهى المُعبّر عنها فى الحديث بقوله: «وإما أن يدخر له فى الآخرة» وما قلناه فى الصورة الأولى يقال فى هذه غير أن تلك للدنيا وهذه للآخرة.

---

(١) رواه الترمذى ومسلم.

الصورة الثالثة: هى قوله فى الحديث: «وإما أن يكفّر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا «ولكن ما المراد بالذنوب؟ هل هى المتعلقة بحق العباد أم بحق الله تعالى؟ فإن كانت الأولى فلا تكفير لها بدليل الأحاديث الكثيرة الواردة فى هذا المقام والمثبتة بأن حقوق العباد على العباد لاتسقط بالتوبة بل بالتسامح وإن كانت الثانية فهل المراد بها الصغائر أم الكبائر؟

فإن كانت الأولى فليس تكفيرها متوقف على إجابة الدعاء فحسب بل لها طريق آخر يشير إليه قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُو إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾[1].

والمراد بها الصغائر وقد قال بها معظم العلماء، وهى التى لم يرد فيها قصاص ولا حد ولا وعيد شديد أو غضب الله تعالى وإن كانت الثانية أى الذنوب والكبائر فالله لايكفرها باستجابة الدعاء وإلا لكان الدعاء ذريعة لارتكاب الفحشاء والمنكر وسببا من أهم اسباب انتشار الإجرام والفوضى ولا تقتضى حكمة الله تعالى ذلك.

والذى نراه من تكفير الذنوب فى هذا الحديث أحد أمرين:

أولها: إما عدم المؤاخذة على الذنوب ولو كانت كبائر مادام قد اقتص من صاحبها وهذا على الرأى القائل بأن الحدود زواجر لا جوابر.

ثانيهما: أن يُراد سترها عن أعين الناس حتى لا يُعيَّر بها مرتكبها وهذه الصور الثلاث اشترط الحديث فى تحقيق كل منها ثلاثة أمور: أولها ألا يدعو الانسان بإثم كقوله اللهم مكنى من فلان.. ثانيها ألا يدعو المرء بقطيعة رحم «كرهنى فى أهلى وباعد بينى».. ثالثها ألا يستعجل الاجابة فيقول: «دعوت فلم يستجب لى».

وهذه الثلاث أشار إليها الحديث بقوله: «ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم أو يستعجل».

ومما تجدر الإشارة إليه أن حديثا نبويا آخر قد تضمن خصلة رابعة تضاف إلى الخصال الثلاث سالفة الذكر لاستجابة الدعاء.

---

(١) النساء: ٣١.

وهذه الخصلة هى: «أن يدفع الله عن الداعى من البلاء والمصائب بقدر مادعا».

الحديث الثانى:

ما رواه جابر بن عبد الله[1] عن النبى ﷺ حيث قال قال رسول الله ﷺ «يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه فيقول له عبدى: إنى أمرتك بالدعاء ووعدتك أن استجيب لك فهل كنت تدعونى فيقول نعم يارب، أما أنت لن تدعونى بدعوة إلا استجيب لك، أليس دعوتنى يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن افرج عنك ففرجت عنك فيقول نعم يارب فيقول انى عجلتها لك فى الدنيا، ودعوتنى يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك فلم تر فرجا قال نعم يارب فيقول إنى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا ودعوتنى فى حاجة أن اقضيها لك فى يوم كذا وكذا قضيتها لك فيقول نعم يارب فيقول إنى عجلتها لك فى الدنيا، ودعوتنى يوم كذا وكذا لحاجة اقضيها لك فلم تر قضاءها فيقول نعم يارب فيقول إنى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا قال ﷺ لايدع الله دعوة دعا به عبده إلا بين له إما أن يكون عجل له بها فى الدنيا، وإما أن يكون ادخر له بها فى الآخرة فيقول المؤمن فى ذلك المقام ياليته لم يكن عجل له شىء فى الدنيا من دعائه» ويدل على وقوع الاجابة أيضًا ما أثر عن موسى الكليم عليه السلام أنه خاطب ربه قائلا:

«يارب إذا دعاك المصلى والصائم والمجاهد فبماذا تجيبهم قال أقول لبيك، قال: يارب فإذا دعاك العاصى قال أقول لبيك لبيك لبيك قال يارب تجيبه بالتلبية ثلاث مرات؟ قال لأنه اعتمد على كرمى وغيره أعتمد على عمله أ.هـ.

(١) هو الصحابى الجليل أبو عبد الله وأبو محمد وأبو عبد الرحمن جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام السلمى الأنصارى المدنى، صحابى مشهور، روى أحاديث كثيرة، وهو ممن شهد العقبة، وغزا تسع عشرة غزوة. قال جابر: استغفر لى رسول الله ﷺ ليلة البعير خمسا وعشرين مرة، وهو آخر من مات من أهل العقبة، وهو من أهل بيعة الرضوان، وأهل السوابق والسبق فى الإسلام، وكان كثير العلم، ومناقبه عديدة، توفى رضى الله عنه بالمدينة ثمان وسبعين، وعمره أربع وسبعون سنة، وفى الشذرات أن عمره أربع وتسعون سنة.

المبحث الثالث

أسباب إجابة الدعاء

قال مؤلف اقتضاء الصراط المستقيم:(١)

وأما إجابة الدعاء فقد يكون سببه إصرار الداعى وصدق التجائه، وقد يكون سببه مجرد رحمة الله تعالى، وقد يكون أمرا قضاه الله له لأجل دعائه، وقد يكون له أسباب أخرى، وإن كانت فتنة فى حق الداعى فإنا نعلم أن الكفار قد يستجاب لهم فيسقون، وينصرون ويعافون ويرزقون مع دعائهم عند أوثانهم وتوسلهم.

وقد قال الله تعالى:

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴿٢٠﴾ ﴾(٢).

وقال تعالى:

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾(٣).

ثم قال واسباب المقدورات فيها أمور يطول تعدادها أ.هـ

وعلى الداعى أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة المحبوبة كيوم عرفة، ويوم الجمعة، ووقت السحر. قال تعالى: ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾(٤) وأن يغتنم الأحوال الشريفة كزحف الصفوف فى الجهاد وعقب الوضوء وعند الآذان وعند إقامة الصلاة وبين الآذان والاقامة وفى السجود وبعد الصلاة وعند نزول الغيث وعند صياح الديكة، ويومى الاثنين والخميس وليلة النصف من شعبان والأيام العشر (أى عشر ذى الحجة) والأيام البيض(٥) وشهر رمضان وعند احتضار الميت وفى مجالس الذكر وعند اقشعرار الجلود. وأن يتخيّر لدعائه الأماكن المباركة حيث تحل بركاتها بالداعى. يقول

---

(١) كتاب اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة اصحاب الجحيم: ص٣٢

(٢) الاسراء: ٢٠

(٣) الجن: ٦

(٤) الذاريات: ١٨

(٥) عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن كنت صائما فعليك بالغر البيض: ثلاث عشرة، واربع عشرة وخمس عشرة» رواه النسائى عن أبى ذر حسن، وإن كنت صائمًا أى صيام نفل، وسميت الليالى البيض لأن القمر فيها يكون من أول الليل الى آخره.

الإمام الشوكانى[1] بخصوص الأماكن المباركة: وجه ذلك أن يكون فى هذه المواضع المباركة مزيد الاختصاص، فقد يكون مالها من الشرف والبركة فقضيا لعود بركتها على الداعى فيها. وفضل الله واسع، وعطاؤه جم. والحديث «هم القوم لايشقى بهم جليسهم، فجعل جليس أولئك القوم مثلهم مع أنه ليس منهم، وإنما عادت عليه بركتهم فاصر كواحد منهم، فلا يبعد أن تكون المواضع المباركة هكذا، فيصير الكائن فيها، الداعى لربه عندها مشمولا بالبركة التى جعلها الله فيها، فلا يشقى حينئذ بعدم قبول دعائه[2].

والبركة هى ثبوت الخير الإلهى فى الشىء. ولما كان الخير الإلهى يصدر من حيث لا يحس ولا يدرك قيل لكل ما فيه زيادة هو مبارك وفيه بركة.

عن عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ: «أُتىَ بضم الهمزة أى جاءه الملك) فى معرسه (أى موضع نزوله) بذى الحليفة. فقيل له انك ببطحاء مباركة[3].

وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يتحرى الأماكن التى كان ينزل بها رسول الله ﷺ ويصلى فيها. فعن نافع[4] قال: كان ابن عمر ينيخ بالبطحاء بذى الحليفة التى كان رسول الله ﷺ ينيخ بها ويصلى.

قال القاضى عياض[5]: ليس النزول بالبطحاء بزى الحليفة (فى رجوع الحاج) من مناسك الحج، وانما فعله من فعله من أهل المدينة تبرّكا بآثار النبى ﷺ. ولأنها بطحاء مباركة، واستحب الإمام مالك[1] النزول والصلاة فيه، وأن لايتجاوز حتى يصلى

---

(١) الإمام الشوكانى هو محمد بن على الشوكانى من أهل صنعاء. فقيه مجتهد، كان يرى تحريم التقليد، بلغت مؤلفاته ١١٤ مؤلفًا، من أشهرها نيل الأوطار وهو شرح على متنقى الأخبار لمجد الدين بن تيمية المتوفى عام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م، وفتح القدير فى التفسير، توفى الشوكانى عام ١٢٥٠هـ/ ١٨٢٤م.

(٢) تحفة الذاكرين شرح عدة الحصن الحصين للشوكانى: ٤٤.

(٣) رواه مسلم فى كتاب الحج.

(٤) حديث نافع رواه مسلم فى كتاب الحج.

(٥) القاضى عياض مغربى الأصل، ألف العديد من الكتب فى علوم الدين والتاريخ، ومن أشهر كتبه (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) توفى بمراكش ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م.

فيه، وإن كان فى غير وقت الصلاة انتظر حتى يدخل وقت الصلاة فيصلى.

وقد جاءت الأحاديث النبوية فى فضل وبركة بعض الأماكن منها قوله ﷺ «اللهم اجعل بالمدينة ضعف ما جعلت بمكة من البركة»(٢) وقوله عليه السلام «صلاة فى مسجدى أفضل من الف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة الف صلاة فيما سواه»(٣).

وقال ابن عمر(٤) رضى الله عنه: كان رسول الله ﷺ يزور مسجد قباء كل سبت راكبا وماشيا ويصلى فيه ركعتين(٥). وقوله ﷺ «من خرج حتى يأتى هذا المسجد (مسجد قباء) فيصلى فيه كان له عدل عُمْرة.(٦)

ومن الأماكن التى تجاب فيها الدعوات: البيت الحرام، وعند الوقوف على الصفا والمروة وعند رمى الجمار. أخرج مسلم حديث طويل رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ أتى الصفا وصلى عليه حتى نظر الى البيت ورفع يديه وجعل يحمد الله ويدعو ما شاء الله أن يدعو.

---

(١) الإمام مالك: هو أبو عبد الله مالك بن أنس الحميرى، إمام دار الهجرة وهو أحد الأئمة الأربعة له كتاب الموطأ، توفى عام ١٧٩هـ.

(٢) رواه الشيخان وأحمد عن أنس.

(٣) رواه أحمد وابن ماجد عن جابر/ صحيح.

(٤) عبد الله بن عمر: هو السيد الجليل الفقيه العابد أبو عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب العدوى، كان من زهاد الصحابة وأكثرهم اتباعًا للسنن، فأبعدهم عن الفتن، وتم له ذلك الابتعاد إلى أن مات، قيل: ويروى أن الرسول الله ﷺ قال فيه: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل» فكان بعد ذلك لا يرقد من الليل إلا قليلاً، وقيل أنه اعتمر قريبًا من ألف عُمرة، وقال مالك: بلغ ابن عمر ستا وثمانين سنة أفتى فى ستين منها، وروى أنه لم يضع لبنة على لبنة، ولا غرس شجرة منذ مات النبى ﷺ، وكان يقول: يا ابن آدم، صحاب الدنيا ببدنك وفارقها بقلبك وهمتك، ويقول: لا يكون الرجل من أهل العلم حتى لا يحسد من فوقه، ولا يحقر من تحته، ولا يبتغى بالعلم ثمنًا، وتوفى رضى الله عنه فى سنة أربع وسبعين، وكان أمر أن يدفنوه ليلاً، ولا يُعلموا الحجاج لئلا يصلى عليه، ودُفن فى «ذات آذراخر» وهى قرية فوق قرية «العابدة»، وقيل بل دُفن فى الجبل الذى فوق البستان على يمين الخارج من مكة إلى المحصب.

(٥) رواه الشيخان والنسائى وزبو داود ومالك عن ابن عمر.

(٦) رواه أحمد والنسائى والحاكم عن سهل بن حنيف / صحيح.

وعند الطبرانى[1] من حديث حذيفة بن أسيد رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا نظر الى البيت قال: «اللهم زد بيتك هذا تعظيما وتشريفا وتكريما وبراً ومهابة». وفيه أيضا من حديث ابن عباس[2] رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «ما بين الركن والمقام ملتزم، ما يدعو به صاحب عاهة إلا برىء. وثبت فى صحيح البخارى وغيره أن النبى ﷺ كان يرفع يديه عند رمى الجمار ويدعو. وفى حديث آخر (فى المساجد الثلاثة، وبين الجلالتين من سورة الأنعام، وفى الطوف وعند الملتزم». وقد عدد الحسن البصرى[3] فى رسالة الى أهل مكة الأماكن التى يستجاب فيها الدعاء هناك وهى خمسة عشر موضوعا: ١) فى الطواف، ٢) عند الملتزم، ٣) تحت الميزاب، ٤) فى البيت، ٥) عند زمزم، ٦) على الصفا، ٧)على المروة، ٨) فى المشعر، ١٠) فى عرفات، ١١) فى المزدلفة، ١٢) فى منى، ١٣) عند الجمرة الأولى، ١٤) عند الجمرة الثانية، ١٥) عند الجمرة الثالثة.

هذه المواضع سالفة الذكر كلها مباركة ولها مزيد اختصاص من الشرف

ولعل ذلك يكون مقتضيًا لعود بركتها على الداعى فيها.

اللهم ألهمنا الدعاء النافع ويسّره لنا وتقبّله منا

اللهم إنا نسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحُسْن عبادتك.. آمين

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير والأوسط.

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير.

(٣) الحسن البصرى هو أبو سعيد الحسن بن يسار من كبار التابعين، ولد بالمدينة عام ٢١هـ وعاش بالبصرة ومات بها عام ١١٠هـ. وهو غير أبى الحسن على بن محمد البصرى الماوردى صاحب كتاب «أدب الدنيا والدين» والمتوفى عام ٤٥٠هـ.

الفصل السابع

المبحث الأول

دعـــوات مـــستجابـة

١- المضطر: يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[١].

وحديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فإنهم مضطرون وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين وغيرهما.

٢- المظلوم: اخرج الترمذى وحسنه قال قال رسول الله ﷺ «ثلاث دعوات لاشك فى اجابتها: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده» واخرجه ايضا ابو داود والبزار. وأخرجه أيضًا أحمد من حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه عن النبى ﷺ «ثلاث تستجاب دعوتهم: الوالد، والمسافر، والمظلوم» - واخرج نحوه الهيقى فى شعب الإيمان وكذلك البزار من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى ﷺ بعث معاذا إلى اليمن فقال: اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب».

واخرج أبو داود الطيالسى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه».. ونحوه حديث أنس رضى الله عنه عند أحمد «وإن كان فاجرا».. واخرجه أيضا البزار، قال المنذرى والهيثمى[٢] وإسناده حسن، وأخرجه أحمد وابن حبان بلفظ «ولو كان فاجرا».

٣- الإمام العادل: أخرج أحمد والترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الامام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم» وحسنه الترمذى.

---

(١) النمل: ٦٢.

(٢) ابن حجر الهيثمى: هو أحمد بن محمد بن حجر الهيثمى السعدى الأنصارى ولُد فى محلة أبى الهيثم بمحافظة الغربية، ففيه باحث، ألف العديد من الكتب. توفى بمكة سنة ٩٧٤هـ/ ١٥٦٧م.

٤- الولد البار بوالديه: أخرج البزار عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى ليرفع للرجل الدرجة فيقول: أنى لى هذه «فيقول بدعاء ولدك» قال الهيثمى ورجاله رجال الصحيح غير عاصم بن بهدلة، ويدل على هذا حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فدعوا الله بصالح أعمالهم وكان احدهم بارا بوالديه فتوسل إلى الله تعالى بذلك فأجاب دعاءه وهذا الحديث فى الصحيح مطولا.

٥- المسلم لأخيه يظهر الغيب: أخرج مسلم وغيره من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملَك ولك مثل ذلك».

وأخرج أبو داود والترمذى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوتان ليس دونهما حجاب دعوة المظلوم ودعوة المرء لأخيه المسلم بظهر الغيب» وفى لفظ المنذرى: «ليس بينهما وبين الله حجاب».

وأخرج أبو داود والترمذى من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال استأذنت النبى ﷺ فى العمرة فاذن لى وقال اشركنا يا أخى فى دعائك ولا تنسنا فقال كلمه مايسرنى أن لى بها الدنيا».

٦- المستغفر للمؤمنين والمؤمنات: أخرج الطبرانى فى الكبير من حديث أبى الدرداء(١) قال النبى ﷺ:

«من استغفر الله للمؤمنين والمؤمنات كل يوم سبعا وعشرين أو خمسا وعشرين مرة، أحد العددين كان من الذين يستجاب دعاؤهم ويرزق بهم أهل الأرض».

ولعل التنصيص على هذين العددين لحكمة اختص بعلمها رسول الله ﷺ فينبغى الاقتصار على احدهما من دون زيادة ولا نقصان وقد ترتب على ذلك فضيلة وهى أن المستغفر بما ذكر يكون من الذين يستجاب دعاؤهم وممن يرزق بهم أهل الارض وهم الصالحون من عباد الله تعالى.

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير. قال الهيثمى فيه عثمان بن عاتكة، وثقة غير واحد وضعفه الجمهور وبقية رجاله ثقات.

وفى هذا المقام يقول ابن الحاج[1].

وبالجملة فالدعاء له أركان وأجنحة وأسباب وأوقات.

فإن صادف أركانه قوى ومن أركانه الاضطرار.

وإن صادف أجنحته طار فى السماء وأجنحته قوة الصدق مع المولى سبحانه وتعالى فيما يرجوه ويؤمله منه ويخالفه.

وإن صادف أسبابه نجح وأسبابه الصلاة على النبى ﷺ.

وإن صادف أوقاته فاز وأوقاته السّحر.

---

(١) المدخل لابن الحاج ص ١٣٥.

* ابن الحاج: هو أبو عبد الله محمد العبدرى فقيه جليل نزح إلى مصر وأقام بها، اشتهر بكتابه (المدخل) وسماه (المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التى انتحلت وبيان شناعتها وفبحها).

المبحث الثانى

بعض النصوص التى يجاب بها الدعاء ودليل ذلك:

١- اخرج البخارى من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من تعار» هب من نومه مع صوت من الليل، أى استيقظ فقال: لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم أغفر لى، ويدعو يستجب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته». . واخرجه ايضا من حديث احمد والدارمى وأبو داود والترمذى وابن ماجه(١)** والطبرانى.

٢- أخرج الطبرانى فى الكبير وهو من حديث معاوية(٢)، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من دعا بهؤلاء الكلمات الخمس لم يسأل الله شيئا إلا اعطاه، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شىء قدير.

لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله(٣).

٣ - أخرج الترمذى من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه وقال حديث حسن. قال سمع النبى ﷺ رجلا يقول: «ياذا الجلال والاكرام، فقال قد استجيب لك فسل» فى هذا الحديث دليل على أن استفتاح الدعاء بقول الداعى ياذا الجلال والاكرام يكون سببا فى الاجابة.

(١) ** ابن ماجه: هو أبو عبد الله محمد بن ماجه القزدينى صاحب السنن فى الحديث توفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين.

(٢) هو معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمين بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى القرشى الأموى، أسلم عام الفتح، وكان إسلامه قبل أبيه، وكتب للنبى ﷺ، وروى أحاديث كثيرة فى الصحيحين وغيرها، وكان حليما وكريمًا، وأحد دهاة العرب ولاه عمر بن الخطاب على الشام، وكذلك ولاه عثمان بن عفان على الديار الشامية، وكانت فى أيامه فتوحات، فلما تولى الخلافة أمير المؤمنين على رضى الله عنه عزله عن الإمارة، فنشبت بينهما حروب طاحنة، ثم كان م أمر التحكيم ما كان، وكذلك ما بعده إلى أن تنازل الحسن بن على رضى الله عنه له عن الخلافة، فكانت بعد ذلك فتوحات، ثم عهد إلى ابنه يزيد من بعده ولم يقره على ذلك كبار الصحابة، وتوفى سنة (٦٠)هـ ودفن بدمشق واختلف فى مكان دفنه.

(٣) قال المنذرى فى الترغيب والترهيب رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط بإسناد حسن.

٤- أخرج الترمذى وابن حبان من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال النبى ﷺ: «من سأل الله الجنة ثلاث مرات، قالت الجنة: اللهم ادخله الجنة، ومن استجار من النار ثلاث مرات، قالت النار اللهم أجره من النار»(١).

٥- اخرج الحاكم فى المستدرك من حديث أبى أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «أن لله ملكاً موكلاً بمن يقول يا أرحم الراحمين، فمن قالها ثلاث مرات قال له الملك: إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فسل»(٢).

٦- أخرج الترمذى من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه -واللفظ له- قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين: فانه لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له»(٣).

وأخرجه ايضا النسائى(٤)* وقال الحاكم صحيح الإسناد، وزاد فى طريق عنده، فقال رجل: يا رسول الله: هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة؟ فقال رسول الله ﷺ ألا تسمع إلى قول الله عز وجل: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٨٨﴾﴾(٥)

(١) أخرجه الترمذى وابن حبان والنسائى فى الاستعادة فى كل يوم وليلة، وابن ماجه فى الزهد وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يتعقبه الذهبى وكذا صححه ابن حبان.

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك وصححه وتعقبه الذهبى بأنه من حديث كامل بن طلحج عن فضاله.

(٣) أخرجه الترمذى واللفظ له والحاكم فى المستدرك وأحمد فى مسنده.

(٤) النسائى: هو الإمام والأعلام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على بن سنان بن بر بن دينار النسائى نسبه إلى (نسا) مدينة بخراسان، وهو صاحب المصنفات، وصاحب السنن، فى الحديث، ولد سنة وخمس وعشرين ومائتين، ونشأو ورعاتقيا حافظًا حجة، رئيسًا نبيلا حسن البزة كبير القدر له أربع زوجات يقم لهن، ولا يخلو من سرية لفحولته، ومع ذلك كان يصوم صوم داود ويتجهد، ورحل إلى الشام والحجاز والعراق ومصر والجزيرة، وكان فى الغزو شهمًا شجاعًا ومتحرزًا، وكان أفقه مشايخ مصر فى عصره وأعلمهم بالحديث، بعد أن استوطن فيها وأمام بزقاق القناديل (بمصر) وكان يتشيع، وقد توفى شهيدًا فى ثالث صفر - وقيل فى شعبان - بفلسطين، وقيل بالرملة، ودفن ببيت المقدس وقيل بمكة، وقال الدارقطنى: خرج حاجًا فامتحن بمدمشق، وادرك الشهادة وقال: احملونى إلى مكة فحُمل وتوفى بها فى شعبان، وهو مدفون بين الصفا والمروة رضى الله عنه.

(٥) الأنبياء: ٨٨.

٧- أخرج أحمد من حديث جابر بن عبد الله بن حرام قال: قال النبى ﷺ: «من قال حين ينادى المنادى: «اللهم رب هذه الدعوة القائمة والصلاة النافعة صل على سيدنا محمد وارض عنى رضا لا تسخط بعده إلا استجاب الله دعوته»(١).

٨- واخرج الحاكم من حديث أبى أمامة رضى الله عنه وفيه مايقول السامع للنداء، ثم يقول: «اللهم رب هذه الدعوة التامة الصادقة المستجاب لها دعوة الحق، وكلمة التقوى، أحينا عليها وأمتنا عليها وابعثنا عليها، واجعلنا من خيار أهلها أحياء وأمواتا ثم يسأل الله حاجته»(٢).

٩- وأخرج البخارى من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة»(٣).

١٠- الاسم الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى.

وتجده منشوراً فى الاحاديث النبوية الشريفة السابقة فى مثل قوله ﷺ «يا أرحم الراحمين»، ودعوة ذى النون(٤) ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٥) وغيرها وقد فصلنا ذلك بما لا مزيد عليه فى كتابنا «الدعاء مفتاح السعادة» فارجع اليه إن شئت.

(١) أخرجه أحمد فى مسنده والطبرانى فى الأوسط.
(٢) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد.
(٣) اخرجه البخارى فى صحيحه وأهل السنن.
(٤) سيدنا يونس من منى عليه السلام.
(٥) الأنبياء: ٨٧.

المبحث الثالث

علامات الاستجابة للدعاء

أورد الإمام الشوكانى فى مؤلفه القيم «تحفة الذاكرين» علامات الاستجابة للدعاء كما يلى:

١- الخشية.

٢- البكاء.

٣- القشعريرة.

٤- ربما ترافقها رعدة.

٥- الغشى والغيبة.

ثم قال ويكون عقب هذا سكون القلب وبرد الجأش وظهور النشاط باطنا والخفية ظاهرا، وحتى يظن الداعى أنه كان على كتفيه حملة ثقيلة فوضعها عنه. وحينئذ لايغفل عن التوجه والإقبال والصدقة والافضال والحمد والابتهال. وأن يقول الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

ثم قال الشوكانى وهذه العلامات التى ذكرها المصنف «أى مصنف الحصن الحصين» هى تجريبية فلا تحتاج الى الاستدلال.

ثم قال: - وكل فرد من افراد الداعين إذا حصل له القبول، وتفضل الله تعالى عليه بالإجابة لابد أن يجد شيئا من ذلك.

ما ينبغى أن يقوله المستجاب له:

قال رسول الله ﷺ: «ما يمنع أحدكم إذا عرف الاجابة من نفسه فشفى من مرض أو قدم من سفر أن يقول الحمد لله الذى بعزته وجلاله تتم الصالحات».

(١) تحفة الذاكرين يشرح عدة الحصن الحصين للإمام الشوكانى.

هذا الحديث أخرجه الحاكم فى المستدرك وهو من حديث عائشة رضى الله عنها وأخرجه أيضا ابن ماجه وابن السنى. قال فى الاذكار واسناده جيد وحسنة السيوطى وقال الحاكم صحيح الاسناد. وهذا اللفظ هو أحد الفاظ الحديث عند الحاكم، ولفظه عند الآخرين.

وعند الحاكم أيضا فى رواية أخرى هو «أن النبى ﷺ كان إذا رأى ما يحب قال: «الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وإذا رأى ما يكره قال الحمد لله على كل حال» وأخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إذا سأل أحدكم ربه مسألة فعرف الاستجابة فليقل الحمد لله الذى بعزته وجلاله تتم الصالحات، ومن أبطأ عليه من ذلك شىء فليقل: «الحمد لله على كل حال» وأخرجه أيضا البزار من حديث على رضى الله عنه.

المبحث الرابع

موانع إجابة الدعاء ودليل ذلك[1]

قيل لبعض الحكماء إنا لندعو فلا يستجاب لنا وقد قال الله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2].

قال لأن فيكم سبع خصال تمنع دعاءكم من السماء قيل وما هن؟

قال: **أولها:** أنكم اسخطتم ربكم ولم تطلبوا رضاه، يعنى أنكم تعملون أعمالا توجب عليكم السخط من الله ولم ترجعوا عن ذلك ولم تندموا على مافعلتم.

ثانيها: أنكم تقولون نحن عبيد الله ولا تعملون عمل العبيد، يعنى أن العبد يعمل بما أمره سيده ولا يخرج عن أمره.

ثالثها: أنكم تقرأون القرآن ولم تتعاهدوا حروفه، يعنى لا تقرءونه بالتفكير والتعظيم ولا تعملون بما أمر الله فيه.

رابعها: أنكم تقولون نحن أمة محمد ﷺ ولم تعملوا بسنته يعنى أنكم تأكلون الحرام والشبهة ولا ترجعون عنهما.

خامسا: انكم تقولون أن الدنيا عند الله لاتساوى جناح بعوضة وقد اطمأنتم اليها.

سادسها: أنكم تقولون انها زائلة وأعمالكم أعمال المقيمين بها.

سابعها: انكم تقولون أن الآخرة خير من الدنيا ولا تجتهدون فى طلبها وتختارون الدنيا على الآخرة.

ويمكن ايجاز ذلك فيما يلى:

(١) كتاب تنبيه الغافلين.

(٢) غافر: ٦٠.

١- عدم التوبة من المعاصى.

٢- تجنب أوامرالله.

٣- ترك العمل بسنة المصطفى.

٤- أكل الحرام وما فيه شبهه.

٥- الاطمئنان إلى الدنيا.

٦- العمل لها.

٧- العزوف عن الآخرة وتفضيل الدينا عليها.. ويضاف إلى ذلك:

٨- الدعاء بالإثم.

٩- وقطيعة الرحم.

١٠- أو بمستحيل.

١١- أو بظلم.

١٢- أو يكون الداعى مستعجلا.

١٣- أو غير جازم بأن يكون شاكا فى الاجابة.

١٤- أو غافلا.

١٥- أو متعاليا متكبرا.

١٦- أو قصد الدعاء عند الاضرحة أولهَا.

وغير ذلك مما يحول بين الدعاء وإجابته ومن جميل ماذكرته رابعة العدوية فى هذا المقام حينما سألها رجل وهى متجهة إلى المقابر قائلا لها: «ادعى الله لى فقالت يرحمك الله أطع الله وادعه فانه يجيب المضطر إذا دعاه».

المبحث الخامس

الدعاء عند القبور أو للقبور

قسّم صاحب مؤلف «اقتضاء الصراط المستقيم»[1] الدعاء عند القبور إلى قسمين:

أحدهما: أن يحصل الدعاء فى البقعة بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها كمن يدعو الله فى طريقه، أو يتفق أن يمر بالقبور، أو أن يزورها فيسلّم عليها ويسأل الله العافية له وللموتى، كما جاءت به السُّنة، فهذا أو نحوه لا بأس به.

الثانى: أن يتحرى الدعاء عندها بحيث يتشعر أن الدعاء هناك أجوب منه فى غيره، فهذا النوع منهى عنه.. فهو أمر لم يشرعه الله ولا رسوله، ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أئمة المسلمين، ولا ذكره أحد من العلماء والصالحين المتقدمين» أ.هـ.

ويقول ابن القيم[2]: «إن الأمور المبتدعة عند القبور مراتب أبعدها عن الشرع أن يسأل الميت حاجته، أو يستغيث به فيها، وهؤلاء من جنس عباد الأصنام كذلك السجود للقبر والتمسح به وتقبيله» كما أن إيقاد الشموع على قبر أو ضريح منهى عنه ينص الحديث الشريف فعن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»[3]، والشموع هنا فى الحديث كالسرج كذلك الطواف حول هذه الأضرحة واستقبالها بدعة نكراء، وكذلك بناء القباب على قبور المشايخ وعمل التوابيت وكسوتها وتعليق المصابيح والقناديل عليها، وكتابة الآيات القرآنية أو كتابة اسم المقبور. فهذه من الكبائر المنهى عنها.. روى مسلم فى صحيحه عن جابر، قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يُخصص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يُبنى عليه[4] وعن أبى الهياج الأسدى قال: «قال لى على بن أبى

(١) كتاب اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم: ص ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨.
(٢) إغاثة اللهفان عن مصايد الشيطان.
(٣) رواه أبو داود والترمذى.
(٤) صحيح مسلم جـ ٢ ص: ٦٦٧ الحديث رق ٩٧٠.

طالب كرّم الله وجهه: ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ «لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفًا إلا سوّيته»(١).

والتاريخ يذكر أن الأضرحة كثرت فى عهد الفاطميين وزادت مبانيها والاحتفالات بموالدها.. يلهون بها المصريين عن اغتصاب المُلَك، وتبعهم الناس بعد ذلك لما وجدوا فيها من خيرات وأفراح، حتى صارت عقيدة دينية تُحترم وإن كانت فاسدة ضارة»(٢).

ولما كان الشأن فى زيارة القبور.. أن النبى ﷺ كان يزورها ويسلم على أهلها.. «إنى قد نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإن فيها عبرة»(٣).. ويقول: أنتم السابقون ونحن بكم لاحقون ويدعو لهم بالمغفرة والرحمة.

فإن الصالحين من المؤمنين، والمتقين من المسلمين، والأولياء من السابقين الأولين أولى بالتجلة والاحترام والزيارة والاتصال، وكما يفرح الأحياء بإخوانهم الذين يعودونهم فى المرض ويواسونهم فى الشدائد، ويظهرونهم على دخائل قلوبهم من البشر بنعمائهم، والألم لضرائهم فإن الأموات كذلك.. يدركون ويحسون.. والحياة البرزخية ثابتة لا جدال فيها.

غاية ما هنالك أن بعض الناس لهم فى زيارة قبور الأولياء وعند مثولهم بين أيديهم أشياء ربما كان فيها معنى من معانى الوثنية أو الإشراك بالله، وقانا الله عاقبته، وباعد ما بيننا وبينه.. ونحن فى ذلك لا نتحيف الحق.. ولا نجافى الصواب، ولا نخالف ما ندين الله به، ولا نتملق أحدًا فيما يجب أن يكون.. ولا ينكر عاقل ما

---

(١) صحيح مسلم جـ ٢ ص ٦٦٦ والحديث برقم ٦٦٩.

(٢) يوميات مفتش تعليم للأستاذ عبد اللطيف بدوى.

(٣) رواه أحمد عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ. ومن الهدى النبوى قوله ﷺ: «أيها الناس إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتبهوا إلى نهايتكم.. إن العبد مخافين: بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، والذى نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.

ـ أتانى جبريل فقال يا محمد: عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به.

ـ البر لا يبكى، والذنب لا ينس، والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان.

يفعله ضعاف الإيمان من السذّج الذين يقتحمون الأضرحة ويناجون الميت بالشكاية ممن ظلمهم، واستعدائه على من اعتدى عليهم، والانتصار به على ماناله بمكروه.

وربما زادوا الطين بلة فرفعوا إلى رحابة مكتوبا سجّلوا فيه ما يطلبون وكتبوا فيه ما يحسون، واستصرخوا به استصراخهم بالله الذى يأخذ من الجمّاء للقرناء، وينصف الضعيف من القوى، ويرد الحقوق لأصحابها «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا وما عملت من سوء تودلو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا».

إن مثل هذه الأمور لا تجوز بحال، ولا يسندها مقال، أو يفتى بها إنسان، أو يدافع عنها لسان، الهم إلا فى دنيا الباطل، وشريعة الحمقى، ودستور المغرورين، لأن الذى يُلتجأ إليه فى الحاجات، ويُفزع إليه فى الملمات هو الله، الذى يقول فى قرآنه: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾** ﴾.

ويقول نبيه المصطفى ﷺ: «وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله». وأخلص العبادة لله ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾** ﴾.

وكذلك نذر النذور باسمهم منهى عنه، لأن النذر لا يكون إلا لله وفى يقيننا أن المسلم لا يلزمه الوفاء به على هذا الشرط الفاسد، ومن الواجب عليه أن ينفقه فى سبيل الله غير متقيد بشكل خاص.. وهو أشبه بالوقف الذى انقطعت جهته ويتحتم ضرفه على الفقراء والمساكين.. وإذ صحّ أن يعذر أصحاب الصنيع بجهلهم ـ ولا عذر فى دار الإسلام كما يقول الفقهاء ـ فلا يصح أن نلتمس العذر للوعاظ والمرشدين وعلماء القرى والأمصار الى يسكتون عن هذه البدع دون أن يحاربوها حربًا شعواء، ويقضوا عليها القضاء العاجل، ولا سيما صناديق النذور التى تباركها وزارة الأوقاف وتجمع فيها هذه المحرمات.. لتوزعها ـ بعد ذلك ـ على سدنة المساجد وخدمها ممن لا تجوز عليهم الصدقة، ولا تُصرف لهم الزكاة.. وقد يقول قائل إن هذا باب من أبواب البر إذا نحن أغلقناه لم نفتح سواه، أو لم نستعص عنه بآخر، وهو ناحية من نواحى البذل الذى لابد منه لصلاح حال الأفراد والجماعات، ومن اللائق أن ننظم إنفاقه

والانتفاع به بدل أن نمنع ما يجيء منه.. ونقول إن الدين الإسلامى يهمه أولاً وقبل كل شيء تصحيح الأوضاع.. لأنها فى ذاتها خير، والعمل عليها بركة، وإن كان الناس يقولون العبرة بالنتائج، فإن العبرة عنده بالمقدمات السليمة التى لا غبار عليها، والوسائل التى لا تحوم حولها شبهة الباطل «وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر».

إن الإسلام الذى أوجب علينا أن نتخير الصديق والجار وأم الأولاد وأن يكون مقياسنا فى ذلك كله الورع والتقوى، والعفة والزهد والدين والمروءة، والأخلاق والأدب.. فهو كذلك يوجب علينا أن نقاوم الاعوجاج ونقضى على الجور، ونحارب الظلم والطغيان، وأن نتأسى بالقدوة الصالحة.. فاكرام العالم، واحترام التقى، ومجاورة الصالح، وعِشْرة المستقيم على الجادة، والارتباط بأهل الورع والزهد، والدين والخُلُق، والأدب والسلوك.. مما يقضى به الذوق واللياقة، والكتاب والسُّنة، والعقل والشرع.. ووىّ الله حين يكون دينه حميدًا، وخُلُقه مجيدًا، ورأيه سديدًا، وفكره رشيدًا واستقامته واضحة، وخيره باديًا، وبره مبدولاً، ومعروفه شاملاً.. يكون احترامه، واعتقاد فضله، وعلوّ منزلته، والاستعانة به من الأشياء التى لا تتنافى مع الإيمان الصحيح، والعقيدة السليمة.. إذ أن الآية الكريمة (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار) تدل بالمقابلة على أن الاختلاط والمصاحبة، والود والألفة، والنسب والمصاهرة والإكرام والتبجيل، إنما هى لهؤلاء الذين طهرت أعراضهم، وسَمَت نفوسهم، وسلمت عقائدهم، وزكت أرواحهم.. وهذه من القضايا البديهية التى لا يكابر فيها إلا معاند، ولا ينكرها إلا أحمق.. وهؤلاء الذين يحاولون تنافر القلوب، وانصراف الأفئدة، والتشكيك فى ولاية الأولياء أقل ما يُقال أنهم مخطئون، وعن الحق والصواب مبتعدون.. وقد يكون عذرهم أنهم يرجون السلامة للناس فى دينهم فلا يحملونهم على التواكل ولا يصرفونهم إلى الضعف، ولا يأخذون بأيديهم إلى التى هى أسوأ.. وبخاصة حين أصبح كثير منهم يتمسح بالولى، ويترأمى على أعتابه، ويتمرغ فى ترابه، ويتوسل إليه، ويطلب منه ماحقه أن يتوجه به إلى الخالق المبدع، والبارئ المصور!!

إلا أنه مع ذلك لا يجب اختلاف الصفوف، وتنازع الأهواء، وتصدع الشمل،

وتنافر القلوب، والنبى ﷺ يطلب دائمًا أبدًا إلى هذه الأمة أن تتلاى على حجة واحدة، وهدف واحد، وينادى بأعلى صوته قائلاً: «إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء» ولا ينبغى أن نتعرض لهذه المسائل بشكل ينبئ عن الخصومة، ويحمل على الخلاف، ويثير الصغائن والعناد.. والأمر لا يعدو أن يكون محل نظر - على الأقل - أو من قبيل ما يقولون عنه «فيه قولان» وكان الأجدر به أن يُعالج بأسلوب حازم، وطريقة مثلى، ونهج قويم.. لكن الذى ابتلى به المسلمين بالتنازع على الخلافة بعد موت الرسول ﷺ، وابتلاهم بالشيعة والخوارج بعد حادثة التحكيم فى عهد على بن أبى طالب رضى الله عنه.. ابتلاهم بالطائفية والمذهبية، والولوع بالنزاع والرأى إلى حد الأمن والهوس، فصاروا يخلقون من الحبة قبة، ويجادلون فى أن عيش كان رَفْعه إلى السماء بجسمه وروحه أم بروحه فقط، وغير ذلك من كل ما ورد فيه نص يحتمل التأويل كأنهم المعنيون بالآية «ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله» ولو تدبروا بعض التدبر فى قول رب السماوات والأرض «ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذى آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة» لو جدوا أن الباب واسع، والطريق واضح، والمهيع فسيح.. وأن وصف الإيمان والتقوى حرى بأن يجعل سوادًا عظيمًا من الناس فى طبقة الأولياء.. ولهذا فإننا نحب لهذا لنقرض المسلمين ألا يصرفوا من وقتهم هذا الفراغ فى الاعتراض على الأولياء والمحبين لهم، المتردين على بيوتهم، وأن ينفعوا الدين من نواح أخرى فإنه لا يزال فى حاجة إلى الدعاية والإعلان والتنويه والبيان، والشرح والإيضاح، والتطبيق على الحوادث والتصرفات تطبيقًا يدل أعداءه على أنه دين الإنسانية كلها، الذى يعالج الأدواء والأمراض، والأسقام والعلل، ويصلح أن يجارى الزمان والمكان مهما اختلفت المناسبات والمشاكل.. وكأنه ﷺ حين يقول: «هلك المتنطعون.. هل المتنطعون» إنما كان يرمى إلى النهى عن هذا التزمت الفاحش، والتشدد القاسى، والخلاف الأهوج.. وما رأينا فى عصر النبوة مثل هذا مع أنهم كانوا يتباينون فى المأرب والآراء والمنازع والاتجاهات، والعمل وللاعتقاد، وفى كثير من القضايا والمعانى التى أخذوها عن رسول الله ﷺ.

يطيل أحدهم صلاته لأن رأى النبى ﷺ يطيل، ويقصر الآخر لأنه رآه يقصر..

وقد يتناظرون فى ذلك ويذهبون إليه ليقضى بينهم فيقول لكل منهما أنت على حق.

كهذين اللذين ذهبا إليه لينصف المحق من المبطل فى قراءة فى سورة الفرقان، فلم يكن منه إلا أن قال: اقرأ يا فلان، وفى نهاية القراءة قال له: نعم هكذا نزلت، وللثانى: اقرأ، وفى نهاية القراءة قال: «هكذا نزلت» ثم قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف».

وما كان ﷺ يرضى أن يقوم النزاع بين مسلم ومسلم على أمر تافه، أو مشكلة بسيطة، وينهى عن الاختلاف ويقول: «إنما أهلك من كان قبلكم كثرة اختلافهم»، ، هدانا الله إلى العمل بما جاء به وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه.

المبحث السادس

خير الدعاء ودليله

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال:

يا نبى الله أى الدعاء أفضل؟ قال أن تسأل ربك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ثم أتاه فى اليوم الثانى فقال يانبى الله أى الدعاء أفضل؟ فقال أن تسأل الله ربك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ثم أتاه فى اليوم الثالث فقال مثل ذلك فقال النبى ﷺ إذا أُعطيت العفو والعافية فى الدنيا والآخرة فقد أفلحت».

ومن خير الدعاء أيضًا الأدعية التى أمر الله تعالى نبيه المصطفى بترديدها فى القرآن الكريم وكذلك التى أمر عباده المؤمنين بقولها فى آيات كتابه المجيد ولم ينسبها الى أحد وكذلك ما ورد فيه من أدعية المعصومين والصالحين من الثقلين نسأل الله تعالى أن يلهمنا الإجابة عند كل دعاء بخير إنه سميع قريب مجيب.